الضريح

الضـريح
د. محمد الملاح

تصميم الغلاف:

المراجعة اللغوية:

الطبعة الأولى يناير 2014

رقم الإيداع: /2013
ISBN: 978-977-6378--

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: **يوسف ناصف**

عمارات العرائس
المعادي الجديدة – القاهرة
+2 01064378376
+2 01146335098
info@elmasrypublishing.com
www.elmasrypublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو فى وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الضريح

د. محمد الملاح

دار المصري للنشر والتوزيع

الفهرس

الضريح .....
وظل آزر يعبد الأصنام .....
توجس .....
وجبة مسمومة .....
فئران وأسود .....
في ذكرى مدام سلوى .....
الوليمة .....
القرار .....
إدمان .....

الضريح

وصف القرية

عجيب أمر هذه القرية؛ أحداثها غريبة، وفلاحيها متناقضي الطبائع، وقد كتبت قصتها عن طريق السرد؛ كالأساطير، والحكايات الشعبية، إلا ماتخللها من حوار أهل القمة، أما الفلاحون - في الطرف المقابل - فلا حوار لهم اللهم، إلا الضحك، والسخرية من الأحداث، وازدراء النفس أحيانًا..

كانت تلك القرية غير كثير من القرى التي حولها؛ فلكثرة ماورد عليها من أنحاء المعمورة من أجناس متباينة، عرفت ما استجد في عالم الأشياء، فعرفت قطارات البخار، وقطارات الوقود، والسيارات، وعرفت الإذاعة، والسينما، وعرفت المطبعة، والصحافة، فقد أيدها الله يومًا بعُمدَة طَموح أورث فيها أسرة متطلعة، بيد أن هذه الأسرة بعد موت مؤسسها اقتصر

تطلعها على المظاهر المدنية؛ فراحت تقيم المنشآت الترفيهية، وتمهد الطرق، دون اهتمام بالأمور الحيوية؛ كإقامة الجسور، والسدود على النهر الكبير، ومقاومة الأخطار التي تحيق بالزراعة، والفلاحين، كالجراد، والفئران، ومداهمة ذئاب الجبل، وأهل القرية - بطبقاتهم المختلفة - معزولون عن حياة العُمودية، وقيادة القرية إلا هؤلاء الذين نالوا قسطًا من تعليمهم - أو كله - بالخارج، فراح الفلاحون ينظرون إليهم على أنهم من جنس مختلف، فلاذوا بأوليائهم الصالحين؛ يقيمون لهم الأضرحة، والموالد كل عام تعجّ بالدراويش، والأتباع بملابسهم المهلهلة ذات اللون الأخضر، والعمامة الحمراء، يتذاكرون بالأناشيد في مديح صاحب الضريح، ومعاركه، وآثاره، بعد أن يقوموا بنثر لحم الذبائح، أو الفول النابت فوق أطباق الثريد ليتحلق حولها فقراء الفلاحين ليستطيعوا مواصلة الذكر، وهم يتمايلون في صياح، وصراخ حتى السقوط، والغشيان.

ولا تقتصر هذه الموالد على حلقات الذكر، والطعام، بل هناك الكثير من الحلقات؛ فتلك حلقات للزار، وقد تقدمتها الكوديا، ومعها امرأة في الغالب، ألبستها عمامة خضراء، ولطخت وجهها بدم ذبيحة، وراحت تطوح رأسها بعنف في الهواء كي تخرج ما سكن جسدها من جان، أو عفاريت، وحلقة أخرى للألعاب النارية، وأخرى لأصحاب القرود، والحيوانات، وبعيدًا عن الأضواء تلتهب المشاعر في خلوات جانبية؛ فيحظى العشاق بليلة حب حسبما تيسّر.

ترقد القرية في حضن النهر العظيم، شريان الحياة في هذه القرية، تترقرق مياهه الهويني طول العام فترعى الحياة، وتحيي الشوق؛ حتى يفيض هذا النهر في منتصف الصيف ليهدد الحياة بالتوقف، ويتغلغل اليأس، والكدر في قلوب الفلاحين.

لم يحدث مثل هذا السيل في تلك القرية الوادعة من قبل؛ فقد ابتليت القرية منذ سنوات بفيضان من الفئران هدم السدود، والقناطر المقامة على النهر منذ مئات السنين فأصبحت عرضه لافتراس النهر الذي يصادق الفلاحين طول العام، ثم يغدر بهم في أيام معلومات، فتهرول المياه خلف الفلاحين تستهدف مساكنهم، وحقولهم، فيسرعون بلا هدف، تغطي المياه كل الأراضي، وتنهدم البيوت، فتنهار الأسطح المحملة بربطات الحطب، وأعواد القطن الجافة يتلقفونها على عجل، ويسرعون بها إلى الشاطئ المتلاشي كي يقيموا جسرًا يحول دون انهيار المياه المتواصل، البعض يحمل أوانٍ وصفائح، يتخبطون، يرتطمون، يجتمعون ويتفرقون، ومنهم من سحب بهائمه وجرى بها، ولكن إلى أين؟!.. ومنهم من يمم نحو حقله، ولكن أين هو؟!.

ومنهم من يقتحم البيوت لاختطاف الأواني الواسعة؛ يركبونها كزوارق يتوجهون بها نحو الحقول، فربما استطاعوا انتشال ما أمكنهم من المحاصيل الغارقة.

يمضي النهار ثقيلًا، غارقًا في الصياح، والعويل بعد أن استحالت القرية إلى جزر من النهر، فيهرب الفلاحون إلى الجبل، ملاذهم حين يقسو النهر عليهم، وعند أقدام الجبل حيث تتناثر أضرحة الأولياء يجتمع أهل القرية للتشاور، والاطلاع على آراء أهل الربط، والحل.

وعندما احتشد جمع كبير طوى الشيخ سلامة الحجازي مسبحته، وهب بقامته التي هي أقرب إلى القصر منها إلى الطول، فاهتزت لحيته الطويلة ذات الخطوط البيضاء تحيط بجانبي وجهه، وتتدلى هائمة فوق صدره، وبطن قد اتسع كثيرًا ليشمل كل الجسد تقريبًا، ورأسه ذات

الجبهة العريضة التي عقد فوقها عمامة بيضاء، تم الاجتماع بحضور العمدة، وشيخ الخفراء، فافتتح حديثه بالآية الكريمة:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾.. أما وقد ابتلانا الله بهذا الفيضان الذي عمّ القرية كطوفان نوح؛ فنحن على خطر عظيم، لا ينبغي معه السكوت.

قاطعه رفيق عوني الذي تكور رأسه الأصلع، وتلوح وجهه سمرة خفيفة، وتهدل شاربه الناعم فوق شفته العليا قائلًا:

- تسمي الغيث خطرًا عظيمًا، وطوفانًا كطوفان نوح، وهو يحمل الخير الوفير؟!.. احمد الله يا شيخ، ولا تبخس الأشياء حقها.

عقب الشيخ بعد أن رمقه بنظرة نارية:

- أين هو الخير وقد دمر الطوفان كل قائم على عوده في القرية؟!

يجيبه رفيق:

- إن كان عذابًا فالعذاب يأتي بغتة، أما ونحن نعرفه مسبقًا؛ فهو شيء متوقع يحسب حسابه، أو ينبغي ذلك على الأقل، ولا نسكت عنه دون إعداد له حتى لايداهمنا هذا الدمار كل عام.

تجهم الشيخ الذي يعتبر هذا المنطق إفسادًا للناس الذين ينبغي إفهامهم أن ما حدث ماهو إلا عقابًا من الله جزاء أعمالهم السيئة، وهو أيضًا لا يعترف بأفكار هذا الزنديق - بزعمه، وحسب تصنيفه لمن حوله - الهدامة التي تدعو إلى الفوضي، والانحلال، واتخاذ الأمور بعللها، وأسبابها، والله تعالى يقول:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾..

وكما قصد الشيخ ألهبت هذه الآية حماس الكثير من أهل القرية؛ فهتفوا بحياة الشيخ، وهلاك الزنديق الذي ما أنزل الله عذابه إلا لوجود أمثاله على الأرض، وفى هذه القرية المبتلاة.

وخلال هذا الصخب يترك الشيخ الحديث لشيخ التجار الذي برز بقامته الطويلة، وشعره المرسل ليبدأ كلامه متسائلًا:

- ماذا صنع لنا الكلام من هذا أو ذاك؟.. فلا تزال المشكلة قائمة، والمياه تتدفق في كل مكان، والمحاصيل تغرق، وجرفت المياه البقية الباقية من مخزون الحبوب، والغلال بعد أن كادت الفئران تأتى عليها.

صاح أحد الأهالي:

- هي سبب كل المصائب.

رد أحد طلبة العلم:

- وماذا فعلنا حتى نتجنب مصائبها؟!

اندفع أحد الأهالي الثائرين، والذي لم يبق له من الدنيا شيء بعد غرق زوجته، وأولاده الخمسة:

- لم يفعل العمدة شيئًا، ولا شيخ الخفراء رغم علمهم المسبق بذلك، فالفئران تعيث فسادًا في القرية منذ سنين، ولاحياة لمن تنادي.

رمقه شيخ الخفراء ذو الطربوش الطويل، والشارب العريض بنظرة قوية، انكمش لها هذا الفلاح المتبجح الذي لا يقر بنعمة أولياء نعمته،

فسكت متواريًا عن الأنظار وسط الزحام.

ثم تلفت شيخ التجار حوله ليرى أثر كلامه على الوجوه المختلفة، والتي سكنت منها الأفواه، والحناجر بينما يواصل حديثه:

– أما وقد حدث كل هذا فماذا نحن فاعلون؟

قال الشيخ سلامة:

– نبتهل إلى الله أن يرفع عنا.

هب رفيق عوني في وجهه:

– وهل سيرفع الله عنا بالدعاء والابتهال، وأيدينا في جيوبنا؟

نفرت دماء الشيخ في عروقه، وهو يصرخ:

– أتشكك في قدرة الله وعفوه أيها الكافر؟

صاح شيخ التجار:

– عدنا إلى الجدل، وإلقاء التهم بلا طائل، من بدا له اقتراح أيها السادة فليتقدم، ونحن نرحب به.

تقدم طالب العلم:

– ليذهب بعضنا إلى القرى المجاورة التي لم يغرقها الفيضان، والتي كانت تحرص كثيرًا على سدودها، وقناطرها، فتقوم بإصلاحها، وتقويتها كل عام قبل الفيضان، فيجلب لنا ما زاد عن حاجتهم من المعاول، والفئوس، والمقاطف، والحمير، ثم نقوم بنقل ما نقدر عليه من رمل،

وحجارة، وحين يتسنى لنا سد الثغرات التي تأتي بالمياه، نشرع في ترميم ما تهالك من بيوت، وبنفس الهمة نقوم ببناء سد جديد قبل فيضان العام المقبل.

وبعد شد وجذب، وتعديل حول الاقتراح انفض الاجتماع بالموافقة على هذا الرأي الذي لم يوله العمدة، ولا شيخ الخفراء أي اهتمام، لتتكرر المأساة في العام التالي، وتتكرر الاجتماعات، والكلمات، والخطب، وتنفجر المشاحنات بين الوجوه المختلفة، والآراء المتعددة، وهي نفس الوجوه التي تظهر في كل عام بظهور نفس المشاكل، فلا تذهب، ولا تذهب المشاكل.

اللهب الغاضب

في ظهر أحد أيام الشتاء، شَبَّ بالقرية حريق هائل تتبع كل المنشآت، مستودعات الحبوب، والتبن، ومخازن البضائع، والمقاهي، ومنتديات السهر، ونوادي اللهو، والتف الصغار بالكبار الذين انهمكوا في حمل ما استطاعوا من مخازن الغلال، والبضائع، ساعدهم في ذلك غياب الخفراء، ورجال الأمن كأنهم لا يعلمون شيئًا، والحريق على قيد خطوات منهم، تتصاعد أعمدة اللهب، تلتهم ما صادفها من أشجار، تجري النار على حافة النهر الكبير على وقع رياح نشطت لتشارك منظومة الأحداث، والخسائر، حتى خمائل الزهر، والرياحين على الشاطئ المزدهر استبدلت النار أريجها المنعش بدخانها الخانق.

بدا منظر الحريق مثيرًا أول الأمر، وبدا الناس مشدوهين وكأنهم أخذوا بما حدث، تبدو ضحكات بلهاء، وابتسامات لاهية فوق الوجوه البرونزية، يعلوها بريق الحرارة اللافح.

تنعقد سحب الدخان مرتقية عنان السماء، وحصاد اللهب الخامد بدا كثفًا تحجب أصيل الشمس فسال متحيرًا في الأفق الذي ينغمس فيه الدخان، فبدت قبة السماء ككتلة من الطين اللزج عجلت بحلول الظلام.

وفي الظلام بدا منظر القرية مفجعًا، وبدا الصمت مدهشًا..

صمت الذهول.

لم يستدرك المتجمهرون المتزايدون الأمر إلا مع نزول الخفراء، ورجال الأمن ساحة اللهب، لينصرف كُلٌّ إلى داره لاينظر خلفه، بعد أن قبضوا على عدد كبير منهم، وأعلن في القرية تقديمهم لمحاكمة عاجلة لمعرفة سبب الحادث، والمتسبب فيه، وباتت القرية المكلومة تنتظر مايسفر عنه التحقيق في الصباح.

وبعيدًا عن الحريق.

تئن مصابيح الطريق تحت وطأة البعوض المتكاثف؛ فترقد في توابيتها ترزح وسط الظلام.

تهوي بعوضات، وتسقط مترنحة من وهج الضوء وهي تنظر شاخصة.

كيف تبدو الحقيقة؟!

وعلى البعد تنكفىء عربات السوق الكبير وسط القرية..

مصطفة؛ تباهي الربح، وتنعي الخسارة..

وفيما بينها تلعب القطط، والكلاب الضالة في سلام، تعبث بلفافات القمامة، وأحشاء الأرانب، وريش الطيور المتناثر..

تخرج قطة سوداء، بائسة النظرة، تلمع عيناها في الضوء الخافت على الأرض..

تحمل بين أسنانها أحد الصغار في ترقب..

أعمى يموء في طيش..

من البرد؟

من أسنان أمه الحادة؟

لأنه حيّ؟!

ربما..

ويتبعها صف طويل من الصغار يتلمس طريقه إلى أثدائها.

ومع الفجر بدأ التحقيق الذي أسفر عن تقرير شامل، وضعه قاضي القضاة عن الحادث، ومدى تقصير قادة الأمن، والخفراء في تدارك الأمر قبل تطور الأحداث، فربما استطاعوا امتصاص غضب الأهالي قبل وقوع الحادث.

ورغم استدعاء التحقيق للشيخ سلامة، وبعض مريديه، ورفيق عوني، وبعض أتباعه، وكبير التجار، وبعض الأعيان، والمتعاملين معهم، حتى شيخ الخفراء لم يفلت من الإدلاء بأقواله، وسار التحقيق يتحرش بالعمدة، والشيخ سلامة ومثولهما أمام هيئة التحقيق، ولولا الألسن الحادة، والأعين المرتابة ما وقف الاثنان هذا الموقف.

لم يسفر التحقيق عن شيء، ولم تضع العدالة أصابعها على متهم من

الممكن الإشارة إليه بشائبة، إلا أن الأطراف المختلفة جعلت تتبادل الاتهام، وتشير إلى بعضها البعض لا إظهارًا للحق، وتوقيع الجزاء، بل لدفع ما قد يحوم حولها من شبهات إن هي سكتت ولم تتهم أحدًا، بينما صرح البعض في شهادته عن دلائل تشير إلى جهات من خارج القرية دبرت الحريق بواسطة عناصر معروفة لها بالداخل، هي التي جرت الدهماء إلى ما انتهى إليه الحال.

وبعد أن استقر أمر هذا الحادث، وأصبح من الذكريات المؤلمة للقرية، نشط ذوو الرأي - بعضهم في تلميح، والبعض يصرح - بأن ما حدث كان بسبب استياء الفلاحين لما وصل إليه حال قريتهم؛ وباء الفئران، وانتشار الطاعون، والأمراض القاتلة، وخرائب تتركها الفيضانات، والسيول، ولا يبالِ العمدة، أو المسئولون معه بحل هذه المشاكل، وكأن القرية لا تهمهم في شيء، وقال أهل القرية في مقهاهم:

- كنا نظن أن الفئران انتحرت بالنار، ولكنها تكاثرت في الدفء.

وما انتحرت إلا الحياة في قلب الفلاح البائس، ولا يقل فيضان الفئران إلا بفيضان النهر الكبير؛ الذي يصيرون بعده أكثر عددًا، ونشاطًا.

انتشرت موجة من القتل والتدمير في القرية، وبدا أن خلاف العمدة وشيخ خفره، وشيخ البلد والخفراء، والخفراء والأهالي، والعمدة ومسئولي الأمن، قسّم الأهالى إلى عبدة أصنام؛ لكل شيعة صنمًا، فهذه صنمها الشيخ سلامة الحجازي، وتلك صنمها رفيق عوني، وهؤلاء يتجهون في قبلتهم إلى دار شيخ التجار، والبعض إلى دار العمودية، ومايتبعها من خفراء وأمن، وبدا بعضهم يتربص ببعض، ويعارض البعض مصالح البعض، يعترض

سبيله، يدمره إن استطاع؛ حتى الشيخ سلامة الحجازي لم يسلم من هذه المحاولات على ماله من احترام استمده من قدسية الدين في النفوس.

شبح الأسطورة

ويبدو أن ملمات القرية لا حد لها، وما مر عليها من حوادث قد أصاب أهلها بداء استحالت معه كل المسكنات إلى نوع من المدمرات يؤذي، مع أنه قصدت به الفائدة.

أصبحت الأعضاء، والأعصاب مغمورة في المياه الراكدة، فأصابها العطن لانعدام الحركة، أو ربما الشلل.

لكن هذا الحادث قد مس الصميم من النفس ما انخلع له الفؤاد، وجاشت على أثره مختلف العواطف؛ ثائرة، محتدمة، لا تجد متنفسًا تنطلق منه إلا ذلك الحرص الذي لاح في العيون، فأخرس الألسنة، وبدا الاصفرار الذي علا الشفاه، والشحوب الذي تمكن من الوجوه المحترقة.

لقد استكانت في عقول أهل القرية تلك الأساطير المرعبة حول الطاحونة العتيقة التي تقع على أول الطريق إلى القرية؛ تلك التي عاصرت أجيالًا وأجيال وهي مهجورة، يرهبها الكبير قبل الصغير، فلا يلم بها إلا من قدر له سوء حظه المرور بجوارها فلا يملك إلا حث أرجله أو حماره، وكأن الشياطين ستمتطي ظهره، فنمت تلك الأساطير، ونشبت بأظفارها في تلافيف العقول، وسرت من الأجساد سريان الدم لا يذكرها المرء منهم إلا كذكر الشيطان، وماتقمصته أذهانهم عنه - بوحي الدين - من

اقتران بالشر، والطريق الوحيد المؤدي إليه، حتى ذلك الرعيل المتعلم عد إذعانهم للأمر اعترافًا منهم حتى لو امتنعوا عن ترديده، أو الإشارة إليه في أحاديثهم الكثيرة.

وبدا ذلك في سلوك أهل القرية ومعاملاتها، فكان الفلاح يصطحب حماره محملًا بأكياس الحبوب كي تطحن في البلدة المجاورة، ولايقرب تلك الطاحونة الملعونة.

ترددت الأسطورة مرة أخرى بحرارة، وتناقلتها الألسن، ولكنها بدت متجسدة الآن، وارتدت ثوبًا مخيفًا يقطر دمًا، وأبرزت أسنانًا قاتلة تسير أينما سار الناس، وتنقطع بهم كلما انفض كل إلى داره لتتقمص قلوبًا واجفة، وأبصارًا خاشعة، وأيادٍ مرتعشة، تتحس مصارع الأبواب، تقيم خلفها المتاريس، وقد انساحت الأم في الدار تعدد أطفالها، تستبين منهم الأولاد، والبنات - لأول مرة - وهم قد انكمشوا في الظلام، وتراصوا في حجرة واحدة مع أبويهم، فلم تعد هناك سهرات في ضوء القمر الذي يمر شاحبًا، يهزل، يبحث عن الأنس؛ فعندما يأتي المساء تتحول منازل القرية إلى مقابر سوداء، فلا تتنفس القرية إلا عند بزوغ أول شعاع من نور الفجر، حتى المقهى العام الوحيد بالقرية، ونادي الشباب أصبحا يوصدان أبوابهما مع صلاة المغرب.

إن الطاحونة العتيقة اشتراها جماعة من الغرباء، بعد أن عرفوا سر الانتفاع بها، نعم هي الأسطورة التي تطن في الآذان، وتدور في أفلاك أذهان هدَّ رأسها التعب، وطمس اتقادها الشاي الأسود، ودخان النرجيلة، فهذه الطاحونة لا تعمل إلا إذا أريق عليها دم عذراء؛ طلب عزيز، إن الرجل الموتور الذي اتخذ مسكنه بجوار الطاحونة قد غافل أهل

القرية، وباع الطاحونة، وباع أيضًا مسكنه، وهجر القرية التي عزلته عنها خوفًا منه، ومن طاحونته التي علاها الصدأ، وارتعت فيها العناكب، والحشرات، وسكنتها الثعابين، والحيات، والأشباح فخدمت أسطورتها، وعززت شائعاتها، وإن كان الشيطان قد اقترن بتلك الطاحونة، فقد اقترن أيضًا وما يمثل من شر بهذا الرجل الذي تردد شائعات أخرى أنه طرد من طاحونته، وأنها أخذت منه عنوة، ولا يدري أحد أين ذهب؟!.. لقد عاش في الظلام، ورحل في الظلام، فهل كلم أحدهم الشيطان؟

في المنظرة التي يستقبل فيها العمدة ضيوفه:

- إنها تقع في زمام أرض الباشا.

رد رفيق عوني:

- كم جر علينا هذا الزمام من المصائب!.. وقد ختمها فوق رؤوسنا.

- لا شأن لنا بهذا الآن يارفيق.

- كم حذرتك منه؟!.. وكم ضيقت على الفلاحين حتى اضطروا إلى العمل عبيدًا في أرض الباشا؟؟

عند ذلك رد العمدة محتدًا:

- البلد بلدي، والفلاحون رعاياي، أفعل بهم ما أشاء، وهذا الكرسي، وتلك الدار قد ورثتها عن والدي الذي ورثها عن أجدادي، وقد أفنوا أعمارهم في تراب هذا البلد، ولأهل هذا البلد، وأنا أدرى منك بمصلحتهم، ومن أي أحد.

ارتفع صوت رفيق عوني ثائرًا، وقد نفرت عروقه:

– كان ينبغي على كل فلاح أن يدق بفأسه أصول دوارك، ونظامك، بدلًا من تعبيد أرض الباشا التي يسقونها بعرقهم، ودمائهم، وكأن طاقة القرية كلها جندت للباشا، وأرض الباشا!!

انتفض العمدة:

– هي ثورة إذًا يا رفيق.

– سمّها ماشئت..

– لولا ما نحن فيه من ورطات لكان تصرفي معك لائقًا بثورتك.

هبّ كبير التجار في وجه رفيق عوني منبهًا:

– إننا في حضرة العمدة، وماينبغي لك..

– السكوت من شيم العبيد..

– لا تحمل نفسك من الأخطاء فوق ماتحتمل..

– تسمي الحقائق أخطاء؟!

– إنك تسب، وتلعن، وتحرض، ولا تقول حقائق.

– لأنك لاتفهم إلا لغة المال، والمصالح مادام الفقراء محتاجين إلى استغلالك لهم.

– هي التجارة، والربح ياعوني.

– في ظل هذا النظام هي امتصاص دماء الفقراء التي تتبقى من لدغ البراغيث.

– أهذا نهاية مابيننا من معروف ياعوني؟

– طفح الكيل.

– طفح الكيل؟.. أم قل الكيل؟.. أما وقد قرنتني بالبراغيث، فتلك البراغيث تمتص دماء الفقراء ليلًا لكي تغدق عليك، وعلى بيتك نهارًا، هل نسيت؟!

امتقع لون رفيق عوني، واستقرت عروقه النافرة، فابتلع ريقه، وربما ابتلع بعض كلمات، ودار نقاش آخر وآخر في هذا الاجتماع، وانفض إلى لا شيء، وانصرف الرجال متفرقين، لايكلم أحدهم الآخر، فقد أباح كل منهم ما في نفسه للآخرين، فاطلعوا عليها كأنهم يرونها لأول مرة، فبدا الهم، والإرهاق فوق عيون تترقب.

مكث العمدة وحيدًا إلى مائدة الاجتماعات، ينظر إلى لا شيء حتى إذا ما اختلجت عيناه، تذكر اجتماعًا دعا فيه شرطته وخفراءه لاتخاذ مايلزم تجاه الأحداث الجديدة؛ حتى إذا اكتمل عددهم روى كل منهم ما رأى وسمع، ومايراه من اقتراح، ثم حفظ كل منهم ماأ لقاه عليه العمدة من تعليمات قبل الانصراف.

كان على رجال العمدة الاتصال بهؤلاء الذين اشتروا الطاحونة وأرضها، فما ينبغي أن تأوي القرية أغرابًا لاتعرف هويتهم، أو تعمل على عزلهم كما أصابهم ما صنع بهم الرجل الموتور.

اتصل رجال العمدة برجال الطاحونة، ودار نقاش، ومقابلات فردية، وجماعية، أعلن فيها رجال الطاحونة رأيهم في القرية، وأهلها، ونظامها، وعلى رأس هذا النظام عمدتها الذي يمتلك نصف القرية بمواردها، فبدا هذا تحرشًا بالعمدة ونظامه، وعلى رجال الطاحونة أن يحتاطوا عند تعرضهم لعمدة القرية، فربما جمع العمدة أتباعه، وشرطته، أو ربما استعان بعمد البلاد المجاورة التي تؤيد نظامه، ومصالحه، ولكن العمدة أغلق على نفسه المنافذ وجميع سبل الحوار، فظل ينتظر ما يمليه عليه – هؤلاء الملاعين – كما وصفهم، فما انتقل إليه عن صورة هؤلاء، وحصنهم الحصين في الطاحونة بجِنّها، وشياطينها، جعله يقتنع تمامًا بمهادنة هؤلاء الرجال، وتحييد أتباعه، وحتى يتصرف بما يليق بعمدة.

الحصن الحصين

يهدر القطار بعد أذان الظهر فوق قضيبين يخترقان المساحات الخضراء المنزرعة عادة بالقطن في شهور الحرارة، وبالفول الأخضر، والبرسيم في موسم الأمطار، يصفر القطار منذرًا بالقدوم، ويصفر مرة أخرى عند انسحابه من محطة القرية، يجر عرباته في تراخٍ متلكئا وسط البساط الأخضر، وما أن تنتهي ضوضاء القطار حتى يبدأ خليط من الصيحات، والضحكات، والبكاء، والصراخ بين استقبال، ووداع، ثم ينحدر الركب الصاخب يسير الهويني مخترقًا الطريق الترابية التي تلتهب بألسنة النار صيفًا، وتهبط كبركة ماء في الشتاء، تنبعث منها الروائح الكريهة، وقد استأنسها أهل القرية، فأصبحت لا تؤذيهم، ولا تضايق حتى الزائر قريب العهد بالقرية.

يستمر الموكب الصاخب مارًا بمقابر القرية عند منطقة النخيل والرمان، يؤمها الصغار الذين يقودون الحمير المحملة بروث البهائم من دورهم إلى رؤوس الحقول، وتبدأ الأصوات العالية في الخفوت حتى تتبدد شيئًا فشيئًا عند الاقتراب من الطاحونة، أو صِرح الشيطان – كما يحلو لأعيان القرية أن يسموها – يتفرع الطريق الترابي بعد منطقة المقابر بمسيرة مائتي خطوة ليدخل إلى قلب الطاحونة، وما حولها من مسكن كبير، ومزارع واسعة، تخترقها قناة تتفرع من النهر الكبير تطل عليها الطاحونة بماكيناتها، ومروحتها الضخمة، وقد علاها كلها الصدأ، وتراكبت عليها، وعلى جدرانها المحيطة أنسجة العنكبوت، وتكاثفت الروائح الرطبة.

أما المسكن الكبير فقد تناولته أيدي الترتيب، والتنسيق، وغطته مظاهر الجمال، فربما كانت البداية في عمران هذه المنطقة التي تبشر بالخير لسكانها الجدد، بعد أن أقاموا في قاعات المسكن غير هائبين، وأعدوا القاعة الكبرى من أجل اللقاءات، والاجتماعات، وقد رصفوا الطريق الترابية في الخارج حتى مبنى الطاحونة.

اجتمع رجال الطاحونة في الجلسة الثالثة من جلسات مجلس الإدارة للتشاور في الأمور المتعلقة بالقرية، والطاحونة، والأراضي المحيطة بها الواقعة في زمام القرية، سأل أحدهم:

– ما الذي نستطيع أن نمليه على العمدة تمهيدًا لإبعاده، أو الرضوخ لاقتراحاتنا من أجل تطوير القرية؟

– نطلب منه تعيين عمدة آخر.

ضحك الجمع حتى تمايلت بهم مقاعدهم، وكاد بعضها يلقيهم على الأرض، قال كبيرهم فؤاد شاكر، وهو أكثرهم قدرة على التفكير، والمناورة، فارع الجسم، رزين الصوت:

– يا إخواني مازال السؤال مطروحًا، وأرجو من سيادتكم الإدلاء بآرائكم التي من الممكن أن تكون موضع التنفيذ.

أجاب أحدهم وهو هادىء الملامح، حاد النظرات، خفيف شعر الرأس، نحيل الجسم، وهم يطلقون عليه أبو الأفكار:

– رأيي أن تأليب القوى المختلفة عليه يعجل بتنحيه، ويجعله بين عدة أقطاب متنافرة، سيرهقه التوفيق بينها، وعند ذلك سوف يترك مكانه لمن هو أقدر منه.

رد آخر يسمونه المهرج؛ يخفي عينيه الحائرتين بنظارة سوداء، وقد بدا رأسه خاليًا من الشعر إلا شاربه الذي يعتز به:

– هذا كلام كبير علينا يا أبو الأفكار، فلا داعي للفلسفة.

رد فؤاد في حزم:

– ليست كل الأوقات للتهريج.

رد المهرج مصطنعاً الغضب:

– لاعتب إذا سكت.

قال فؤاد متجهًا إلى باقي الرجال:

– أولًا وقبل كل شيء يجب أن نجد الشرعية القانونية التي تعطينا حق المطالبة بأي رغبات لنا.

ركزوا أنظارهم نحوه:

– بيِّن قصدك، ووضح برنامجك في نقاط حتى نستطيع بحثها نقطة نقطة.

أجاب:

– مايجب علينا هو اختيار أكبرنا سنًا ليقوم بدور الواجهة، وعلينا الوقوف خلفه.

في صوت واحد:

– نحن في سن واحدة تقريبًا.

قال:

– صحيح، ولذا علينا إقناع أحد الكبار بالقرية بأفكارنا كي يقوم بالإنابة عنا، وإقناع كل من يخالفنا الرأي، والاتجاه، وطمأنته من ناحيتنا، وبالتالي يملك الخبرة الفنية لقيادة الطاحونة.

قال أبو الأفكار:

– معلوماتي في هذا الصدد تشير إلى جلال الديك أحد كبار عائلة الديك، ولديهم دراية كبيرة بشئون الطاحونة، وكيفية إدارتها وصيانتها، وحاصل على أرفع الشهادات، والأوسمة.

رد فؤاد مبتسمًا، وقد استحسن الاختيار:

- إذًا علينا بالتصويت عليه الآن.

وأجمعت عليه الأصوات متفقة على هذه الشخصية، وانتهى الاجتماع بإرسال أحدهم للاتفاق معه، وإقناعه.

الأفكار المشتتة تبحث عن نظام

عند شروق شمس اليوم التالي وصل جلال الديك إلى مقر الحصن في مركبة أنيقة؛ أرسلها له مجلس إدارة الطاحونة الذين اختلى أحدهم لإعداد بيان يلقيه على أهل القرية صباح اليوم التالي عبر الإذاعة في الدار المعدة لإلقاء مثل هذه البيانات.

وبوصول جلال الديك تم عرض البيان عليه، فوافق عليه بعد إبداء بعض الملاحظات.

خرج الفلاحون في الصباح مكبرين وهم يحملون عصيًا عليها شارات ملونة، وأغصان أشجار، يحمل بعضها ثمارًا، وقد رفع البعض أبناءه الصغار فوق كتفيه، تصورًا أنهم في صباح عيد الأضحى؛ العيد الذي افتدت فيه السماء إسماعيل الذبيح بكبش سمين رحمة بقلب ابراهيم الذي كاد ينفطر على ولده، فلقد كذب البيان الشائعات التي أطلقها العمدة، ونظامه عن الإدارة الجديدة، وكيف أن هذه الإدارة الجديدة قد قامت بتجديد الطاحونة، وإعدادها لخدمة أهالي القرية الكادحين، وأنها استجلبت منهم خبيرًا يقوم بإدارتها وصيانتها، وعلى كل فلاح أن يحمل أكياس حبوبه، ويتجه بها فورًا إلى طاحونة قريته التي طهرتها الإدارة الجديدة من العناكب، والحشرات، وطردت منها العفاريت، والشياطين

التي سكنتها، ومنعت منافعها عن الناس.

كانت الحركة السريعة تجاه هؤلاء الرجال ذوي الخطوات الواسعة هي ما يستطيع العمدة إنجازه ضدهم، فأرسل يسأل عن مطالبهم التي لم يطلبوها منه بعد، ثم يعرض عليهم مبلغًا ضخمًا من المال لتعويضهم عن الطاحونة، وإصلاحها، فكانت هذه العروض دافعًا للاستياء منه، والتعجيل برحيله عن القرية حتى لا يكون سببًا في تجميع الأذناب حوله، وبحماس الشباب عملوا على استقطاب الفلاحين، وتجميعهم حولهم، ضمانًا للوقوف خلفهم في التخلص من العمدة، فراحوا يتعرفون إليهم، ويذكرونهم بأنفسهم، فهم الذين أبعدهم العمدة خارج القرية للتخلص منهم في حرب بائسة راح ضحيتها الكثير منهم، فهم منهم، وليسوا غرباء كما يدعي العمدة، وأنهم سوف ينتقمون للقرية مما أراده لها العمدة من فقر، وجهل، ومرض.

وبعد انتظار يرسل الرجال طلباتهم إلى العمدة مع أحد أتباعه، متضمنة التخلص من بعض رجاله، وأطيانه، فعقدت السرعة التي رد بها العمدة بالموافقة على طلباتهم ألسنتهم عن الكلام، وأذهانهم عن التفكير بعد أن توقعوا رفضه، أو حتى مماطلتهم، فأجمعوا على انعقاد مجلس إدارة الطاحونة لتقرير مصير العمدة، والاحتفال بأول جلسة يرأسها جلال الديك الرئيس الجديد.

وفي الاجتماع بعد أن جرى فاصل من الترحيب، والتهنئة، دار النقاش الذي ذهب في كل اتجاه بين المحاكمة، أو الإعدام، أو القتل، أو الطرد من القرية، واستقر الرأي الأخير فوق المائدة الفخمة أمام جلال الديك الذي استحسنه، وطلب من أعضاء مجلس الإدارة التصويت عليه،

وعندما رفض البعض تقدم فؤاد باستقالته لشجب رأي طرحه الرئيس الجديد الذي أجمع عليه كل المجلس، ولكي يحتفظوا بصفحتهم البيضاء التي طالعوا بها الفلاحين، وانطبعت في أذهانهم.

جرى البعض منهم خلف فؤاد الذي ألقى استقالته على المائدة تاركًا القاعة لمحاولة استرجاعه، وسحب استقالته، واعدين بإجماع الرأي على اقتراح طرد العمدة، وإهمال الاقتراحات الأخرى، فاستأنف الاجتماع حتى إذا اقترب من الختام دخل رسول العمدة بمباركة ما يقوم به الرجال، وتهنئة الرئيس الجديد لمجلس إدارة الطاحونة ففاجأه الرجال بإعلان صيغة إنذار بترك العمودية، ومغادرة القرية خلال أيام، وإلا عليه تحمل العواقب.

الذكرى

في الغرفة المطلة على النهر العظيم في دار العمودية سرح العمدة ببصره خلال النافذة في الأفق البعيد، نشطت الدار بالحركة غير العادية لجمع المخصصات، وإعداد المركبات، فانسابت الذكريات توقع أنغامًا تنتظم مع تأوهات الساقية على الجانب الآخر من النهر، وهي تذرف دفقات من الدموع الغزيرة خلال الحقول الواسعة.

كم رويت هذه الحقول أمام عيني، وكم أشرقت الشمس، وغربت في أفقها البعيد، وكم حمل إليَّ النسيم عبير الطين في أمسيات القمر، وحملت نسمات الظهيرة الثقيلة شذرات من عرق أنفار الزراعة، وصيحاتهم حال المرح، وحال العمل، هؤلاء الأنفار الذين كانوا يربطون أحيانًا في الساقية

عندما يخافون على الأبقار من التعب، والهزال، فيُجَرون على وجوههم فوق ألسنة لهب الصيف، أو يتركون في العراء في ليال الشتاء القارص، في عصر كانت الرحمة ترف أخلاقي لا معنى له، ولم يتوقف الأمر على هؤلاء الرعايا الذين لا حول لهم ولا قوة من الذين تحركهم لقمة العيش، بل تقتلهم أحيانًا؛ فامتد إلى هؤلاء الذين يمسكون عليهم لقمة العيش مثله، ولكنهم ينتمون إلى أفكارهم، ومصالحهم، وأطماعهم في السلطة، والتسلط على الناس؛ فهذا هو رفيق عوني وأتباعه يتشدقون بحقوق الفقراء، والمحتاجين ليل نهار، فلا يفعلون لهم شيئًا سوى الكلام، ومثلهم الشيخ الحجازي، وأتباعه الذين لايرون فيهم إلا منفذين لقدر الله في أن يكونوا فقراء، وعليهم الرضا بهذا القدر، وليس لهم من حقوق سوى الفتات، يلقونه إليهم على شرط أن يلهجوا بحمد الشيخ، ويسيروا في ركابه بزعم أنه الكاهن الأعظم، والزعيم الذي يجب أن يتسلط على الناس باسم الدين؛ بل هو الدين.

أما كبير التجار الذي كانت تؤول إليه الأموال من كد وعرق الجميع من فلاحين، وعاملين ما يسيل له لعاب العمدة الذي كان يحلو له إغراء الشيخ الحجازي وجماعته به، وبأعوانه من التجار، وكم سلطه وجماعته أيضًا على رفيق عوني وأتباعه، وكل من كان تسول له نفسه مضايقته، أو الاقتراب من سلطته وأطيانه فكان الشيخ، وأتباعه هو سلاحه المسلط على كل من في القرية، وقد استخدمته هذه الطوائف أيضا ضد طوائف أخرى، فالشيخ كان يقدم خدماته لكل من يدفع.

كيف سيصير الحال عندما نرحل من هذه القرية، وخير هذه القرية، هذه القرية التي أغرت جدي الأول عندما كان المجد يتربع على عرشها،

ويجري مع خرير الماء في القنوات، يغرى بالتمادي والمزيد، ثم ينصب في عرض البحر الكبير، لقد وصفها جدي الأول عندما جاء إليها لأول مرة بأنها أرض السعادة، والحظ، وأنها منذ آلاف السنين قد ساعدت مريديها، وجعلت أصحاب الهمة فيها حكامًا وأمراء، والعبيد أبطالًا وملوكًا..

وهنا انتفض العمدة، ونظر إلى نفسه، وإلى صورة جده الأول التي تتوسط الحائط أمامه:

- كيف تسنى لهذا الجاهل الذي أدار هذه القرية من خلال دخان نرجيلته أن يجعل منها قوة تنافس قوى الأرض من حولها؟!

ولكنه أفاق من تأملاته الضاربة في أعماق الزمان، والمكان على صوت كهزيم الرعد:

- كل شيء جاهز ياحضرة العمدة.

- إذًا حانت ساعة الرحيل.

لم يتمالك نفسه، فلم يخطر أبدًا في باله أن يكون طريد هذه القرية، فانسابت على وجنتيه دمعتان أبرقتا فوق حمرة ملتهبة لتتوارى بين الشعيرات الكثة للشارب المبروم، فحار بين مشاعر متناقضة تضطرم في صدره العريض الذي تبرز منه غابة من الشعرات المتشابكة تشي بالقوة:

- كم يعز عليّ هذا التراب.

ثم تقدم العمدة ليستقل مركبته المهيأة للرحيل، وقد انتظره عندها جلال الديك ليكون في وداعه الأخير تشريفًا له، فانطلق الناس في أعقابهم، وقد تضاربت مشاعرهم، فمنهم من يبكي، ومنهم من يضحك،

ويطلق الزغاريد، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على الصياح، والعويل بعد أن زجر الخفراء من بادر بذلك، وهم يتوعدون:

- أهي جنازة ياغجر؟!

رد رفيق عوني:

- جنازة وعرس، جنازة عهد انقضى، وعرس عهد قادم مازال جنينًا في ضمير الغيب.

الجدار

كان على أعضاء مجلس الإدارة الكثير مما ينبغي عمله، والفصل بالرأي المشترك فيه، فقد أحسوا أنه لا غنى لأحدهم عن المجموعة حتى لو شذّ أحدهم بالأفكار المتطرفة، فهذه القرية وما تحويه من طوائف، ولكل منها مصالحها ومشاكلها، أصبحوا لا يعرفون مصائرهم، وحتى أعضاء المجلس لا يعرفون، إذًا العمل، والعمل بسرعة هو المنقذ الوحيد، القرية بلا عمدة، وبلا نظام معروف لمن حولها، يتقاطر الناس حولهم من كل الأرجاء ليعرفوا من هم، وهم قد تواروا خلف جلال الديك الذي صدروه ليمثلهم، ويتحدث بلسانهم.

هل فعلوا هذا لعدم الثقة في أنفسهم؟.. يواجهون أشخاصًا لم يتعاملوا معهم قبل ذلك؟.. هل كان ستارًا يعملون خلفه، وينتظرون ردود الأفعال عليه؟ أم كان هو رجل المداورة، والمحاورة مع ممثلي طوائف الفلاحين، والزائرين حتى يمكنهم وضع برنامجهم الذي تصوروا أنهم

سيحتاجون إليه، فكانوا كطفل يتطلع إلى أشياء على مائدة تعلو قامته.

كانوا يتداولون الأحداث بتلقائية شديدة في اجتماعاتهم، ويخرجون بالقرارات ليستقبلوا ممثلي الفلاحين، والمهنئين، فإذا فرغوا من ذلك التقوا لقاء عاطفيًا يجمع أبًا بأولاده مع جلال الديك.

في أحد اجتماعاتهم طرحوا موضوعًا ملحًا للمناقشة:

- ماذا سيكون عليه الوضع في الخطوة التالية؟

- هل يستدعون أحد ممثلي طوائف القرية لينتخب عمدة يعمل على تحقيق أهدافهم لإسعاد الفلاحين، ورخائهم؟

- أم يقومون بإجراء انتخابات عامة؛ بعد أن تقوم كل الطوائف بتطهير صفوفها من جيوب العهد البائد؟.. وعرض خططها تجاه المشاكل الكبرى التي تضمن لهم تحقيق أهدافهم، فإذا اكتسحت إحداها الانتخابات تولت أمور القرية، وإذا خسروا جميعًا فلا مناص من فرض أنفسهم على شئون القرية.

قام ممثلوا الطوائف الأرستقراطيون الذين كانوا يمثلون الفلاحين في مجالس القرية، ومناسباتها الكثيرة بالترحيب بالسلطة الجديدة، وعرض الخدمات، فاستشعر رجال الإدارة الجديدة أن تلك المبادرة تهدف إلى السيطرة عليهم، واحتوائهم، والنوايا القديمة لا تتفق مع الجديدة، رغم وجود صداقات، وقديم تعارف.

ولم يفهم كهنة المعبد الذين شاخ بهم الزمن مبدأ التعاون الذي قدمته الإدارة الجديدة، بل ظنوا أنهم لا يستطيعون عمل شيء بدونهم، وبعيدًا

عن خبرتهم، عدا مناوراتهم السياسية فقرر مجلس الإدارة فجأة الإطاحة بكل شيء، بهؤلاء وماهم عليه من معتقدات المعبد القديم، إذًا:

– لا للانتخابات؛ فهي لعبة الكراسي الموسيقية لعلية القوم من أجل السلطة، وإذا لعبها العامة، والمعدمين الذين يجلسون على الأرض أصبحت ملهاة لاتلبث أن تنقلب إلى كوميديا سوداء، وعامة الفلاحين إما مرضى، أو جهلة، أو معدمين، أو الثلاثة معًا؛ فكيف لمعدم أجير، وجاهل أن يملك حرية قراره في انتخابات يساق إليها ببعض السلع الضرورية، ولا يحصل عليها من علية القوم إلا وقت الانتخابات فقط، علاوة على جهله؟!

– إن الفلاحين يحتاجون إلى عمل يحصلون منه على المال، ويحتاجون إلى المصحات، والمستشفيات ليستطيعوا العمل، والإنتاج، ويحتاجون إلى المدارس، والجامعات لتحريرهم من الجهل، وكلها مشروعات عملاقة تحتاج إلى الأموال، والكفاءات، ولا بأس من الانتخابات لمن أراد الجلوس على الكراسي بدلًا من الجلوس على الأرض عن طريق المجالس الشعبية، وممثلين عن الفلاحين.

– لا دستور للقرية، فهو الذي تسبب في مآسي الوضع القديم، وهو الذي أجاز لعقولهم البالية اقتراف كل ماهو شائن، ومضحك، ولابأس من عقد اجتماعي، وميثاق للعمل بينهم، وبين الفلاحين.

أصبحوا الآن أصحاب الحق الشرعي في كل شبر من هذه القرية التي لا تعي موقفها تجاه الجديد من الأحداث، هذا القطيع الذي انتخب العمدة؛ سارق قوته وجلاده، يسير في المظاهرات الانتخابية يقودها مشعوذ، أو أجير ليهتف بحياة مذله، ومستعبده:

- لص، وكذاب، ومع هذا سننتخبه.

وكيف يتسنى لهذا الأجير أن يقوم بالدور المراد منه؟ كيف يصرخ في وجه سيده الذي يجد لذة في تعذيبه إياه؟.. وسيده يتقلب في النعيم الذي أقامه هذا الأجير الذي كان من الممكن أن يقوض هذا النعيم الذي صنعه لهذا السيد بيديه، ليتحول هذا السيد إلى خنفساء مغبرة، ولكنها حالة تاريخية شاذة.

هل كان من الواجب إراقة الدماء فوق تراب هذه الأرض التي استعبدت هؤلاء فكانوا كالعاشق الوَلِه الذي لاينتظر من محبوبته سوى الذل والعذاب، وهي لا تأبه له؟!

هل يهيب الدم المسال على الأرض بقرينه الذي يجري في العروق، وينتفض في القلب؟

أم انتفضت لهم الإدارة الجديدة، فيقومون بكل شيء عنهم، وهم نيام لا يفيقون؟

إن الجرح والمأساة تصنع البطولة، وتدفع بالتضحية على الساحة، لكنه نعيم الجنة الموعودة المقترن بالكسل، والخمول.

مازال هناك من يتربص بهم من رجال العهد البائد بإثارة المتاعب، والثورة عليهم، وتتخذ الإدارة جانب الشدة، فتحكم على زعماء الثائرين بالإعدام في ساحة القرية.

قال فؤاد:

- جماعة الشيخ الحجازي مثال الاتحاد، والنظام، والعمل، وانتشارها

في أوساط الفلاحين، يجعلها خير دعاية لنا.

ويحاول بعض رجال العهد القديم الاندماج في الإدارة الجديدة بتقديم العون لهؤلاء الشباب الذين لا يحتكمون على كثير من الخبرة فجلس هؤلاء، واستمع أولئك، ولكن كان للإدارة الجديدة رأي آخر كي تتغير العقلية السياسية للقرية:

– لا يتم اختيار الرؤساء على أساس السن، والخبرة، بل يكونون من الشباب في كافة مجالات العمل، والصحافة.

– يستغل رجال الإدارة الإذاعة لنقل الخطب، والقرارات إلى الفلاحين مباشرة، فالغالبية منهم لا تقرأ، ولا تكتب.

ثم بدأوا الاندماج في أهل القرية، يعرفونهم، ويعرفون أنفسهم ليتخلصوا من تأثير رجال العهد القديم، وكان عليهم دراسة بعض المشروعات التي ترفع مستوى الفلاحين، فتقدموا بمشروع للإصلاح الزراعى لرد الأرض من مالكيها الكبار، وتوزيعها على الفلاحين حتى يتحولوا من عبيد، وأجراء إلى ملاك فيجنون ثمرة عرقهم.

قاموا بتنحية كل مسئول بالقرية ينتمي إلى العهد القديم، وتنصيب أنفسهم بدلًا منهم مستعينين بأتباعهم الجدد، حتى لو كانوا من رجال العهد البائد.

قال فؤاد:

– نستأذن الشيخ الحجازي في اشراك بعض أتباعه ذوي الكفاءة في تولي الأمر معنا.

فقاموا باتصالات، ومحاورات رفضها الشيخ كلها معلنًا انقلابه عليهم، وتأييده المطلق لجلال الديك، فقد ثارت في الشيخ مطامعه الملحة في الصعود نحو كرسي الحكم، فهو وأتباعه أحق منهم، وأجدر بشئون القرية، وأهلها.

وعلى أثر افتتاح الطاحونة للعمل وسط احتفالات أهل القرية الذين ما فرحوا بتوزيع الأرض عليهم بقدر مافرحوا لهذا الحدث؛ وحملوا جلال الديك فوق الأعناق بين أعضاء مجلس الإدارة الذين علت وجوههم الدهشة، فتذكروا أن الفضل لهم، وأنهم كانوا في غاية المثالية عندما صدروا هذا الرجل لإدارة الطاحونة الجديدة، بل أن البعض نهش الحقد قلبه فصر أسنانه، وهو ينتقل ببصره بين هذا المحمول على الأعناق، وبين الذين يحيطون به على الأرض.

وعندما ضغط جلال الديك زرًا كهربيًا تحركت راحتي الطاحونة تزمجران، وتثير الغبار، فمدوا أبصارهم بين شقي الرحى الفارغة، ونظروا فيما بينهم، فإن صراعًا جديدًا أضيف إلى صراعهم، صراع السلطة فيما بينهم، وتساءلوا:

- أنحن صنعنا هذه الزعامة؟!

- ما الذي أخرنا عن الظهور؟!

- هل هو الخوف؟

- هل هو التربص، والتروي؟

- أم ماذا؟

ولكنه قبل ذلك كان رجل السن، والمركز، والحكمة، وهذه أشياء يقدرها أهل القرية، ثم وجه جلال الديك الواضح الملامح، المنبسط الأسارير، المتألق السمرة، البسيط التعبير، الثاقب الفكر، والمحدد الهدف؛ إنه مكسب لهم، ولكنهم الآن بدأوا في النفور منه، والتحفز له.

إنهم الآن قوة يعمل حسابها، وأغلبية، يستطيعون بها تفويت القرارات التي يرغبونها، إنهم يقنعونه أحيانًا، ويجبرونه في أحيانٍ أخرى، ويلوح لهم الآن التخلص منه لتخلو لهم الساحة.

يريدون شخصًا مستبدًا، يعلن قراراته دون الرجوع إلى أحد المستشارين المتخصصين الذين ضاقوا بهم، وبقوانينهم، فهم القانون.

- أليسوا في القمة؟

- أليسوا حكامًا؟.

يريدون شخصًا منفردًا غير متقيد بهم، وفى المقابل تحقيق الرغبة التي أوجدت السلطة طريقها إلى نفوسهم.

الضحية

- إن جلال الديك يلوح باستقالته.

- رجل المتاعب..

- رجل الأخلاق، والسياسة.

– يريد صنع المعجزات في زمن القنبلة الذرية.

قال فؤاد:

– نريد بقائه خلال الأيام المقبلة فقط، إنه الرمز، والواجهة، وأمامنا خطوات يجب تحقيقها في وجوده.

– والحل؟

أجاب فؤاد:

– نرفض الاستقالة.

استطرد بعد أن شخصت أبصارهم إليه:

– الآن على الأقل، فالناس لا يعرفوننا لأننا نبدو أمامهم مجرد أغلبية للتصويت على قراراته العظيمة التي أكسبته شعبيته.

– إننا اخترناك رئيسًا لمجلس الإدارة التي تخليت له عنها بسهولة.

قال أحدهم مفاجئًا إياهم:

– أقترح أن يفوض المجلس السلطة لفؤاد في اتخاذ القرارات الضرورية؛ دون الرجوع إلى مجلس الإدارة.

حاول البعض الاعتراض، ولكن الأغلبية صوتت لصالح الاقتراح الذي أطلق له السلطة عليهم، وانقسم المجلس إلى مجموعة ترى ضرب جلال الديك، وإبداء الرغبة في عدم التعاون معه، ويهددون بترك القرية ليفعل بها ما يشاء، وتخوفت مجموعة أخرى من استغلال جلال الديك

الفرصة فيعين أفرادًا يحكمون القرية من العناصر القديمة، أو من أتباع الشيخ الحجازي؛ والتي لا بدّ أنها سترحب بالتعاون معه كل الترحيب.

أطرق فؤاد، وبدت ملامحه ساخرة بما يحدث، اعتدل فوق مقعده، وقال بنبرة حازمة:

– نحاول تقليص سلطاته التي يجمع فيها بين رئاسة القرية، وإدارة الطاحونة، فيمكن إقناعه بالاكتفاء برئاسة القرية، وأتولى إدارة الطاحونة.

وعبثًا حاولوا إقناعه بالتنازل عن إحدى السلطتين، وخرجوا من عنده يلتفت بعضهم إلى بعض في غيظ، وغمغم أحدهم:

– لحم العجوز صعب الأكل.

وأثار هذا التعليق آخر، فهاج صارخًا:

– سأضربه بالرصاص.

وبدأ فؤاد مقاومة شعبية جلال الديك، اتصل بالصحف، والإذاعات ليظهر أنه الرجل الأول، وحرض أعضاء المجلس الذين تولوا مهامًا بالقرية بعدم أداء قسم العهد أمامه؛ رغم أنه أصبح حاكمًا للقرية بتأييد مشايخها، وطوائفها.

ويدعوا فؤاد المجلس للانعقاد دون إخطار جلال الديك، ويتخذ المجلس القرارات بعد منتصف الليل لتخرج في صحف الصباح فيقرأها جلال الديك كأي قارئ عادي، وفي المقابل يبدي جلال الديك تعليقًا لمحرري الصحف، والإذاعات على موضوعات اتفقوا على إثارتها أمام الرأى العام فيسبب إحراجًا لهم.

وكان جلال الديك يفاجئهم في اجتماعاتهم، وعندما يقبل نحوهم يتوقفون عن الحديث، ويلتفتون إليه قائلين:

– ماذا تحب أن يكون جدول الأعمال اليوم؟

يسألهم في جمود:

– فيمَ كنتم تتحدثون؟

– لا شيء غير الثرثرة، ونحن نشرب الشاي.

وكم كان هذا الوضع ثقيلًا على الطرفين، وكان لابد لجلال الديك من اتخاذ موقف لكسر جمود العلاقة بينه وبين المجلس الذي أصبح مستقطبًا – كما يعبر الساسة – حول طرفين، ففي ظهر أحد الأيام؛ وبينما كان أعضاء المجلس مجتمعين في غرفة فؤاد بالدور الأرضي من مبنى الإدارة، استأذن عليهم مدير مكتب جلال الديك قائلًا:

– سيادة الرئيس ينتظركم في الدور العلوي.

انفجر أحدهم صارخًا:

– اذهب عليك اللعنة أنت وسيادة رئيسك.

وجم الحاضرون، وخيم صمت قطعه رنين الهاتف، فرفع أحدهم السماعة مميزًا صوت جلال الديك يرجوهم أن يصعدوا إليه في مكتبه، فرد عليه قائلًا:

– لم يكتمل العدد للاجتماع بعد.

التفت كل منهم إلى الآخر مكفهرًا، ثم مبتسمًا، ثم تفيض الابتسامة بالضحك المجنون، لحظة، ولحظات حتى غاضت إشراقات الوجوه متحولة إلى اكفهرار مرة أخرى على صوت نفير جلال الديك ينذر بقدومه بين مجموعة من الإذاعيين، والصحافيين من داخل القرية وخارجها، أما هم الذين كانوا يأملون في اجتماع المجلس رغم التحرش به وقعوا في الحيرة والارتباك حين تسآل الصحفيون والإذاعيون عن الاجتماع المرتقب، ليتقدم جلال الديك نحو فؤاد باستقالة أغرقتهم في الإطراق، والتفكير.

- ماذا يفعلون بهذه الاستقالة؟!

مضى جلال الديك في طريقه إلى الخارج بعد أن شعر بالراحة، وحسن التصرف؛ فاستقالته لها أسبابها، فقد أحس أنه ليس إلا واجهة تنعكس عليها قرارات غير مسئول عنها أوقعت الفلاحين في بلبلة أظهرته كرجل غامض لا يدري ماذا يفعل، وكأنه ليست هناك خطط، ولا اتفاقات.

لاح لحظة لذهنهم أنها الفرصة المتاحة للتخلص منه، فاجتمع رأيهم على قبول الاستقالة:

- الحمد لله، جاءت منه.

ثم أعلنوا بيانًا أوضحوا فيه أنه عضو عادي؛ يريد سلطات غير عادية في المجلس، ولهذا قبل المجلس استقالته بالإجماع، وتعيين فؤاد بدلًا منه.

لم يتوقع المجلس أن تتحد كل الطوائف في القرية للمطالبة بعودة جلال الديك، وعلى رأسهم أتباع الشيخ الحجازي مصطحبين باقي الجماعات

الأخرى مما جعل فؤاد يتجه إلى جلال الديك في بيته يطالبه بسحب استقالته، وعودته إلى رئاسة المجلس حفاظًا على وحدة الفلاحين.

كان المجلس منعقدًا أثناء هذه الزيارة المفاجئة التي اتفق عليها المجلس، وجلسوا ينتظرون عودة فؤاد الذي دخل عليهم مبتسمًا، وقد اتسعت عيناه لتفصح عن خاطر التمع في ذهنه الذي استقطب حوله أفكار المجموعة ليباغتهم بسؤال:

- ما اليوم؟

وقبل أن يجيبه أحدهم وقد استقرت الألسن خلف الشفاه المزمومة أجاب هو:

- في مثل هذا اليوم من الشهر القادم سوف يختفي جلال الديك.

علا وجوههم الاندهاش وهم يسألون:

- كيف؟

واصل بثقة:

- نتخلص منه..

إن فؤاد يبذل الكثير، ويرسم الخطط بعد دراسة المواقف، والظروف، فأقلية من الفلاحين تريد مجلس الإدارة، وهو على رأسه، وتنظر الغالبية لجلال الديك على أنه البطل الذي طرد العمدة، ووزع الأرض عليهم، والفكرة التي انطبعت في أذهان الفلاحين عن جلال الديك هي وقوفه إلى جانبهم، والعمل على عودة مجالس القرية بكل اتجاهاتها مما أشعرهم

أن مجلس الإدارة يقاوم هذا الاتجاه، وعلى رأسهم جماعة المثقفين الذين نالوا شهاداتهم العليا من جامعات البندر على أيدي أساتذة يلجأون إليهم في الرأي، والمشورة.

أما أخطر الطوائف جماعة الشيخ الحجازي التي شتتها المجلس، وسجنهم في سراديب الطاحونة منذ أيام بعد أن نما إلى علمهم اتصالهم المحموم بجلال الديك، ودعمهم له فأدى إلى ارتيابهم منه علاوة على ضيقهم المسبق به، وإحساسهم بخطورته عليهم، وبهذه الذريعة يستطيعون الوصول إلى ما يريدون، فلابد لهم من البحث عن دور لفؤاد يجعله بطلًا شعبيًا فينسى الفلاحون جلال الديك، وأيامه.

وفي المساء طلب فؤاد اجتماع المجلس لأخذ الموافقة على خروج كل المعتقلين، وإلغاء الرقابة على الإذاعة، والصحف، وإعداد القرية لانتخابات تجري بعد ثلاثة شهور.

سرح فؤاد بذهنه في ذكرى احتجاجات الفلاحين التي أرغمت المجلس على الرجوع عن قراراته، وكيف أغفلوا تلك الوسيلة الفعالة في التغيير فشرع يكون هيئة جديدة تحمل أفكارهم، وتسد الفراغ في ساحة الرأي بالقرية، وجعل يكسب لها الأنصار، وعلى رأسهم عمال وسائقي النقل، وهم عصب الحركة، والعمل بالقرية، وما لبث هؤلاء الأعوان أن كونوا حرسًا منهم، وفرسانًا لحماية الأفكار الجديدة، والدفاع عن رؤوسها المتأججة.

وفي أول تحرك لهؤلاء بدأوا اعتصامًا يطالبون فيه بإعادة زملائهم المفصولين من الخدمة، وإلغاء الجزاءات، وصرف متأخراتهم، وبادروا

بمطالبهم في وجود مندوب من الإذاعة؛ ثم تصاعدت الطلبات، والهتافات:

- لاجماعات، أو أحزاب..

- لا مجالس قرية..

- استمرار مجلس الإدارة إلى أجل غير مسمى..

- لا انتخابات إيثارًا للسلامة، وحتى لا تقع القرية في الفوضى..

في ذلك الحين انهمك جلال الديك في استقبال بعض الضيوف على حدود القرية حين خرج المعتصمون إلى الشوارع ليسدوا كل الطرق، ثم تهجم بعضهم على دار القضاء، ودور المثقفين، ورجال العلم، فضرب من ضرب، ولاذ من لاذ بالفرار، وهنا شعر جلال الديك بالطوفان الذي سيجر معه الأخضر، واليابس، فشعاراته التي رفعها ألقاها الناس، وداسوا عليها.

- ماذا حدث؟!.. ومن غير الناس لهذه الدرجة؟!

ولايبدو في الأفق أن فؤاد يريد الإطاحة به الآن، فلا زال جلال الديك رمزًا بطوليًا في نظر الغالبية، وفي وجود البطولة تسقط ضحية أو أكثر، تمتطيها البطولة لتصنع البطل.

كانت خطواته التالية هي القضاء على بعض المشاكل التي منها الفئران مثلًا، فما زالت تؤرق أهل القرية وتجعلهم غير آمنين على أرزاقهم، ومتاعهم، وأصبح الفلاحون ينظرون إلى هؤلاء الرجال الذين أقروا القرارات، ونفذوها وكأنهم يملكون خاتم سليمان، فهذه الفئران جرت

الناس إلى الخراب، والدمار وتفكك بعض الأسر، فاتهم الرجل زوجته، وأولاده ببيع مقتنياته، وملابسه التي اعتدت عليها الفئران فأكلتها، أو مزقتها في جحور الدار.

إذًا لابد أن يتحركوا فيجتمعوا للقضاء على هذا الخطر، حتى يتفرغوا للقضايا الداخلية، فكونوا الجماعات والحملات، وفتحوا الهيئات المختلفة لتسجيل المتطوعين، وتدريبهم، فخرجت الفرق لنثر الأنواع المختلفة من السموم، والمبيدات، وأدوات التعقيم، والحرق، والإبادة.

– لماذا لم يبادر أهل القرية بمقاومة الفئران التي تؤذيهم دون انتظار القرارات؟!

فأهل هذه القرية إما تقمصتهم روح الزراعة، أو الفيضان، وما لهذه الروح من تعاون تلقائي، ولحظي لدفع الخطر، فلابد أن يحسوا جميعًا بالألم بعد أن يقع عليهم دون تمييز، أو ربما لطول عزلة السلطة العليا عنهم، وتميز كل منهما بمجتمع منفرد له خصائصه التي لا تختلط بالآخر، بل وليس مستعدًا لهذا الاختلاط؛ فإذا اتخذت السلطة العليا قرارًا، هبط على هؤلاء ليقوموا بالتنفيذ سواء انتفعوا، أو أضيروا، المهم أن يأتي القرار من أعلى.

نظم رجال الأمن، والخفراء في ساحة القرية حشدًا من الفلاحين دعت إليه الإذاعة في الصباح يعلن فيه المجلس الجديد ما تحقق من إنجازات، وما ينوي عمله مستقبلًا.

سرادق ضخم صفت فيه المقاعد، والأضواء، وأمام الجدار الذي يتصدر الساحة أقيمت المنصة، والأبواق تحيط بالمكان، ثم لحظات، وتتوقف سيارة

نزل منها فؤاد في عباءة سوداء، تتخللها خطوط بيضاء، يتحلق حوله أعضاء المجلس، ورجال الأمن، والخفراء يفسحون المكان بعد أن شبّ الفلاحون عن مقاعدهم وهم يصفقون، ويهتفون ملوحين بمناديلهم العريضة حتى هز صوته المكان يناديهم:

- إخواني، إخواني.. ظل يرددها حتى سكنوا في مقاعدهم، ثم بدأ يتحدث عما تم في مشروعاته بالبيانات، والإحصاءات، والكل منصت في إعجاب.

في ظل السكون الذي يتخلله صوت فؤاد الجهوري، انطلق صوت رصاصات طائشة تندفع بقوة نحو المنصة حيث يقف فؤاد.

انتفض الجميع منطلقًا صوب المنصة التي أحاط بها رجال الأمن، والخفراء بعد أن فرق الرصاص أعضاء المجلس، وقد أصاب اثنين منهم.

تقدم مدير الأمن نحو فؤاد ليبعده عن المنصة التي تشبث بها وهو يصرخ:

- ليبق كل في مكانه.

وكأى حادث عظيم من حوادث القرية الكبيرة، بدأ التحقيق الذي أسفر عن إدانة الشيخ الحجازى، وأتباعه، وفى أقل من عشرة أيام كانوا يملأون سجون القرية المترامية فوق الجبال التي تطل على القرية في الجنوب، ليعيدوا ماحدث لهم من العمدة من قبل.

قال جلال الديك الذي أصبح ظلًا باهتًا لأحد مديري تحرير الصحف:

- لقد استداروا إلى كل من رضوا بالفرجة في الأيام الأخيرة، وأحس

باقتراب دوري كمتفرج.

- إن أقصى ما نستطيع عمله الآن هو إبراء ذمتك.

- لهؤلاء؟!

- للتاريخ.

- ربما ذكروا اسمي في التحقيق..

- هل كنت متصلًا بهذا الشيخ، وجماعته؟

- بحكم رئاستي للقرية، أتصل بكل الطوائف.

- لقد ورطك الشيخ، وأتباعه، فإنهم - في العادة - لا يذهبون وحدهم.

دخل مجدي الرفاعي بجبهته الضيقة، وأنفه الأفطس، الصديق الحميم لفؤاد مكتب جلال الديك وهو يمارس عمله اليومي، ثم أعلن بعد أن سحب نفسًا ملأ رئتيه، ونظر إلى الأرض:

- إن مجلس الإدارة قرر إعفاءكم من رئاسة القرية.

- أنا لا أقبل الاستقالة نظرًا للظروف التي تمر بها القرية، ولكنني أرحب بالإقالة التي ستعفيني من وخز الضمير الذي لم أعد أحتمله.

- إنك ذكرت في التحقيق متورطًا مع جماعة الشيخ الحجازي في حادثة الاغتيال الفاشلة.

- لكنك تعرف أنني بريء، وليس هذا طبعي، وما مصلحتي؟

– نحن نقر بذلك، ولهذا قررنا اعتكافك بمنزلك بالقرية حتى تمر الأزمة.

– ولكن ذلك سيعزز الاتهام الموجه ضدي.

– ولهذا نرجوك أن تلزم بيتك هذه الأيام حتى لا يستغل أولاد الحرام الموقف، ويشعلوا الفتنة ضدك.

– لكن..

– ستمكث معززًا مكرمًا، أسبوعًا على الأكثر، ثم يعود كل شيء إلى ما كان عليه.

وتحت إلحاح مجدي الرفاعي، خرج جلال الديك، وهو يتأمل مكتبه الذي أحس أنه لن يعود إليه مرة أخرى، حتى استقر بصره على أقرب الأشياء إليه؛ مصحفًا يتصدر مكتبه، طواه، واصطحبه معه.

خرج معه في سيارة محكمة النوافذ، مسدلة الستائر مع شخص يعرفه جيدًا، ما أن استقر في مقعده الخلفي حتى أحس أن السيارة تنطلق من طريق غير الطريق، واتجاه غير الذي اعتاده، التفت إلى مجدي الرفاعي عن شماله متسائلًا عن المكان المقصود:

– إلى القصر، لقد نسيت أن أخبرك بذلك.

– أي قصر؟!

– قصر الباشا، أعددناه لك، ستقيم في قصر الباشا القديم.

رفع إليه جلال الديك جفنين مثقلين بالتوقع، والاضطراب بينما

هرب مجدي الرفاعي بنظراته عند قدميه وهو يغمغم:

- إن إقامتك في هذا القصر سوف تدوم أيامًا، ثم تعود إلى بيتك.

استغرق الحديث الطريق الترابي ذو التضاريس الصعبة، أما مشاعر جلال الديك في ذلك الوقت فلم تختلف كثيرًا عن الطريق الذي سلكه مرغمًا.

استقرت السيارة أمام بوابة حديدية ضخمة، أسرع إليها الخفراء يفتحونها، وهي تصر بقضبانها كلحن أثار أشجان جلال الديك الذي لاحظ أن رجال الأمن قد سبقوه إليها ليقيموا نقاطًا مسلحة للحراسة، تنفتح بوابة القصر على حديقة غناء ذات مدخل محفوف بالنخيل، تجاوزته السيارة إلى قلب الحديقة الزاهرة؛ تتوسطه مقاعد رخامية، ومع صوت الطيور التي تمرح في حرية فوق أشجار البرتقال، واليوسفي، انبعثت أصوات دجاج ذات ألوان جميلة في حظيرة عند ركن من أركان الحديقة.

وقبل أن يأذن له مجدي الرفاعي بالنزول قال له:

- إن الظروف لن تسمح لك بالزيارات لمدة أسبوع على الأقل.

لم يأبه جلال الديك كثيرًا للتعليمات التي تلقى عليه حين هم بالنزول، ليتهالك على أول مقعد يصادفه، وكأنه لم يسترح منذ بدأ السعي في هذه الدنيا، نظر حوله، ثم أخرج غليونه الذي انسرحت من خلال سحب دخانه الأسطورية الأفكار، والذكريات، انتهى من تفكيره وهو زاهل عما حوله هامسًا لنفسه:

- لماذا كل هذا؟.. ولماذا انتهيت إلى هنا؟!

وبعد قليل أحس بانسحاب السيارة، وبها الرفاعي، وعندما خرجت السيارة من الباب الكبير دخلت سيارة أخرى، وعندما توقفت أمامه أنكر من فيها، فربما صادفهم يومًا من الأيام.

تقدم نحوه ابنه الأكبر وهو يبكي، فنفث دفقة من الدخان وهو يرحب بابنه الأصغر:

– أراك رجل على مستوى المسئولية، تواجه المواقف بشجاعة مثل والدك، ولم تبك مثل أخيك الأكبر.

ثم أخرج الخفراء ثلاث حقائب كبيرة، ولم يبق بالسيارة سوى زوجته، فتقدم نحوها خطوات، اصطحب يدها وهو يبتسم:

– أنا أعرف أنك جئت لتري القصر الذي سنعيش فيه، هيا بنا نتفقد معالمه.

وفي المساء أذاع مجلس الادارة إعفاء جلال الديك من رئاسة القرية، وتنصيب فؤاد خلفًا له، ولكن لم تظهر الاحتجاجات.

كانت هذه الفترة من حياة القرية المليئة بالأحداث أشبه بمباراة يصفق فيها الفلاحون لكل من يحرز هدفًا، بصرف النظر عن انتمائه؛ فذاكرة الفلاحين قد أرهقها تتابع الأحداث، فهرعوا مسرعين إلى صناديق الانتخاب كي يدلوا بأصواتهم لصالح فؤاد.

الشيخ سلامة

طفا الشيخ على سطح الحياة فجأة، ودون إنذار، بدأ نشاطه في صفوف الفلاحين البسطاء خلافًا لما تتبعه الطوائف الأخرى من توجيه مبادئها، وأفكارها إلى الطبقة المتعلمة فقط والصفوة المثقفة، فاستطاع إحكام سيطرته عليهم دون مناقشة من هؤلاء الأتباع الذين تميزوا بالجهل، والأمية فكان سهلًا عليه تلقينهم أهدافه، ومبادئه بالتوازي مع مبادئ الدين المعروفة لكل الناس، عود أتباعه الطاعة المطلقة – حتى المتعلمين منهم – بموجب بيعة يلتزم فيها الأتباع بالسمع، والطاعة، وعدم المناقشة.

وليقنع أتباعه بأهمية ما يمليه عليهم اختار لهم مصطلح الجماعة الذي استحسنه بدلًا من مصطلح الحزب، وعزز فيهم روح الجماعة التي تتعالى على الخصوم في كل شيء، فلا نقاش مع الخصوم بل الضرب، والقتل، والإرهاب بما تيسر من أسلحة كان الشيخ حريصًا على جمعها بكافة السبل، وتخزينها دون أن يطلع أتباعه على ذلك، فهو يتهم المختلفين معه بأنهم قد تلبسهم الشيطان، وزين لهم ذلك، ودائما يأمر أتباعه:

– من يشق عصا الجمع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان.

والعضو المثالي في نظر الشيخ هو من لا رأي له، ومع هذا لا يجد في أتباعه إلا الضعيف الأمين، أو الخبيث القوي، ولا وسط بينهما، وبنى نظام الجماعة، وهيأها بما يضمن له الارتباط الكامل به، واستحالة الاستغناء عن شخصه، ومن أتباعه المقربين من يبرر عدم ولاء الشيخ للدعوة إلى الدين بأنه يضم إلى الجماعة كل من هو مفيد له شخصيًا، حتى لو عرف عنه الخروج عن الدين بالسرقة، والرشوة، وشرب الخمر

وغيرها من الموبقات، فما الذي تستفيده الدعوة من هؤلاء إلا طمع الشيخ في السيطرة، والسلطة، والمصلحة الشخصية.

كون الشيخ جماعته فيما يشبه التنظيم السري، تحيط بالفرد من كل جانب من جوانب حياته كخيوط العنكبوت، فلا صلاة إلا في مساجد جماعته، ولا يمارس الفرد فرضًا من معالم الدين إلا داخل الجماعة، كما يتخلى المنتمي للجماعة عن كل معارفه الذين تختلف مصالحهم مع مصالحها.

هاجم الشيخ كل من كانت له صلة بالدين خارج جماعته؛ فاعتبر الدين هو الجماعة، والجماعة هي الدين، ومن السهل إطلاق تهمة الكفر، والكافرين على هؤلاء الذين هم خارج الجماعة حتى لو أقاموا الدين، وأبلوا فيه بلاءً حسنًا، أو انقطعوا لله.

وحرص الشيخ على أن يوهم أتباعه بترديد الحوادث التي تظهره من أصحاب الكرامات، وأهل الخطوة من المشعوذين، والدهماء، وكان أتباعه ينتظرون هذا النذر اليسير ليهيلوا عليه القدسية المطلقة حتى وضعوه في مصاف الأنبياء، والمرسلين.

بدأ الشيخ بتجميع الأتباع في بيت قديم من البيوت النائية بالقرية، ثم فرض التبرعات عليهم، وعلى بعض أعيان القرية الذين انطلى عليهم دجله، وشعوذته ليجدد هذا البيت، ويقوم بتوسعته، وبناء مسجد ملحق به، ومدرسة، ونادي، ثم أقام مشروعًا اقتصاديًا بمساعدة بعض المتخصصين يدر دخلًا للجماعة، ومن هنا بدأ تدخله في شئون القرية لدى العمدة، وبعض الأعيان بعد أن التف حوله بعض أصحاب الصناعات،

وصغار التجار، والبسطاء الذين لم يتعلموا، أو لم يكملوا تعليمهم خاصة هؤلاء الذين لم يكن لهم عائلات كبيرة في القرية ينتمون إليها، فعوضتهم الجماعة عن العائلة، والعزوة بعد أن سمح لهم الشيخ بممارسة الأنشطة الاجتماعية، والرياضية في نادي الجماعة والتي كان لايمارسها إلا الأعيان في نواديهم.

ولضمان انتشار أفكار الشيخ، وتهوياته على أتباعه، وبث تعليماته لهم على نطاق واسع قام بشراء مطبعة صغيرة من تبرعات الأعضاء.

ومن أجل الإنفاق على شراء السلاح، وتخزينه، وخروج مظاهرات الجماعة ضد أي طائفة يغضب عليها العمدة؛ حرص الشيخ أن يكون للجماعة أملاكها الخاصة، وأموالها التي تحصل عليها من كل مكان خاصة من أهل الخير، ومن أتباع العمدة الذين يثقون في الشيخ، وعمامته، ولحيته.

تقرب الشيخ إلى العمدة بكل السبل، وتقرب إلى كل من كانت له صلة بالعمدة كولي للأمر تحق له الطاعة، والولاء، فحرم الخروج عليه، وأضفى صفة القدسية على كل أعماله حتى لو كانت ظلمًا للعباد، واعتداء على الحرمات، واعتبر طاعته من طاعة الإله.

ولم يعترف أولي الأمر والرأي للشيخ في يوم من الأيام بالإمامة، والفقه، ولم يعرف عنه أنه تعلم في مدارس دينية، حتى أنه تمرد – باعترافه – على حفظ القرآن في كتاتيب القرية؛ ولم يبلغ النصف منه، ولم يقر أحد الشيوخ أن له تلميذًا باسم الشيخ الحجازي، ولم يكن سوى مدرسًا بسيطًا لإحدى المواد التكميلية في التعليم بدأ بها حياته العملية، ثم تخلى

عنها، وهجرها عندما انهالت عليه الأموال، والمشروعات بحجة تفرغه للجماعة.

ورغم تدخله في شئون القرية إلا أنه لم يكن ذو منهج سياسي يتحدث به؛ بل هرتلات، وألفاظ محفوظة يلقيها في كل موقف لا تشتمل على مبدأ معين، أو فكرة يمكن تطبيقها؛ حتى أنه يموه على أتباعه أيضًا بكلام عام لا يفهم منه شيء محدد، وهم يقبلون هذا بلا مناقشة حتى لو خاض بهم في مياه الصرف الصحي على أنه الماء الطهور، فإذا ألح السائل في شيء أو أبدى استدراكًا على الشيخ ردد عليه اتهامه المحفوظ بأنه مريض القلب»، وسيء الظن.

وعاث الأتباع في القرية الآمنة فسادًا عندما ملأتهم شعوذة الرجل هوسًا بأن الله تعالى اختارهم لإقامة الدين، والموت في سبيله، بعد أن ضمن لهم الشيخ الجنة التي تغص بالخمر، واللبن، والعسل المصفى؛ يتلقاهم على بابها الحور العين، وإنهم معصومون مهما اقترفوا من محرمات، ومعاصي ضد من هم خارج الجماعة، التفجيرات، والاغتيالات حتى على من تسول له نفسه الخروج على الجماعة، فبدا أن الشيخ عاجز عن السيطرة عليهم، فراحوا يرمون مظالمهم على أهل القرية حتى صارت القرية لا تأمن من هؤلاء، وارتاب الناس من سكوت العمدة عن هذا الشيخ، وأتباعه.

ولم يكف العمدة عن تأييد الشيخ وجماعته إلا عندما طالت اغتيالاتهم أفرادًا من المشايخ، والأعيان أتباع العمدة، فشعر بأنه المقصود بعد ذلك، ومن السهل على هؤلاء المرتزقة أن يكون هو في الغد القريب هدفًا

لرصاصات غدرهم على مقصلة مصالحهم المتقلبة، وأطماعهم التي لا يحدها إلا السجن، أو الموت، أو شراء سكوتهم بالمال.

السقوط

تنحشر دارها وسط الممرات الضيقة، تعلو جوانبها تلال القمامة تناغش أرجل المارة، تزكيها أبواب الدور بدفعات من ريش الطيور، وروث البهائم، تميز المكان رائحة تنبعث من أجساد الطيور النافقة التي تزورها في المساء أسراب القطط، والكلاب.

عندما ينتصف النهار الذي يبخل بأشعة الشمس، إلا انسلالات في بعض الزوايا الضيقة تمنح الدفء، والحياة لكائنات تغتذي بالموت، تغص الطرقات التي تنساب بين الدور المتلاصقة بالمارة، والباعة الجائلين، كل يروج لسلعته في دلال، وعشق كمن يدلل محبوبته، وربما كان نداؤه مميزًا لبعض النساء، والبنات، تشترك معه في هذا العرض أسراب الذباب، والبعوض التي تحلق أيضًا فوق كوكبة الأطفال أشباه العرايا الذين التفوا حوله، يختفي لون بشرتهم التي استبدلوها بما تنعم به عليهم الأرض من تراب، وطين، وروث.

تخرج النساء، والبنات ملتفات حول ما يحمله البائع فوق كتفه، أو فوق حماره، أو على عربته الخشبية التي يدفعها بيده، أو قد يجرها بغل، حاملًا أكياس الملح، والحبوب التي يقايض بها، أو أثوابًا من القماش، أو برميلًا من الكيروسين.

وفي الليل تبدو دور الفلاحين وكأنها تماسكت خوفًا، وقد وشتها

أطلال الحطب المخزن فوق الأسطح بخصلات من الشعر المتهدل فوق الجدران يوحي بالكآبة، والعدم، يلوذ الصمت بأفنية الدور بعد العشاء، تبدده نسمات تقتحم الطاقات الضيقة أعلى الجدران، فتبدو ذبالة المصباح المعتكف في الطاق حائرة، فتختلط الدوائر المظلمة، والمضيئة في المكان، حتى تستعيد أماكنها مرة أخرى.

إن ليل القرية ذو الإضاءة الهزيلة يحتل فيه الخير، والشر أماكن محددة لا يطغي كل منهما على الآخر، فهناك لقاءات الخير، وتجمعاته في حلقات الذكر، والصلاة، وتدارس العلم، وأمور القرية المختلفة في المساجد، أو دور المشايخ، والأعيان، وهناك أيضًا لقاءات الشر، وتجمعاته حول مواقد الفحم، والحطب لحرق دخان المعسل، والمخدر، ولقاءات الغرام الآثم في الدهاليز المظلمة، والحقول، وبين أرجل الماشية، وفي مذاودها، وقد يتربص أحدهم بجاره، أو زوجته، أو حقله، وماشيته، وفى قريتنا هذه أكثر اللقاءات من النوع الأخير ذو النشاط المستتر، الذي يخجل من أخلاق تجثم فوق الصدور منذ آلآف السنين؛ وتحتل فراغات هائلة من الجماجم المحترقة، فتخلوا الدور غالبًا بعد العشاء.

في إحدى هذه الدور، تفترش جدة نعيمة الأرض بلحمها المترهل بعد العشاء تغط في نوم عميق، بينما تنسل نعيمة من باب الدار لتلتقي بهذا الشاب أو ذاك من شباب القرية، تتدلل، أو تقتني تحفة ممن يسافر إلى المدينة، لم تتزوج بعد لشدة فقر أبيها الفلاح الذي تقاسمت الأرض والمخدرات خيرات جسده الهزيل، جميلة، فاتنة، ذات ابتسام، وإشراق، يسكب البهجة، والفضول في النفوس التي تلقاها، وتأنس لها، البعض من الرجال والنساء يتوقع نهارًا سعيدًا عندما يلقاها في الصباح تتجه نحو السوق.

عندما تفيق جدتها على صوت الباب، ونعيمة تمسه في رفق، فيداعبها بهزات هيكله المتفكك في صرير يفضح خروجها، ودخولها في سكون الليل، فتعتقد جدتها أنها تفتح لأبيها دائم السهر خارج الدار، فتفرك عينيها وهي تردد مع نعيمة حوار كل ليلة:

- هل جاء الملعون؟!

- إنه أبي..

- قطع يا حبيبتي..

- إنه يشقى طول النهار، ويصحو مبكرًا..

- مسكين يا أختي، ماذا يفعل، يتفرغ لنا؟!.. أم لعاهرات الليل، وأصحاب المزاج؟!

عاهرات، مزاج، تقترن دائمًا بالظلام في تلاحم يثير في ذهن نعيمة ذلك التلاحم العاري الذي كانت تراه أثناء نومها في غرفة أمها عندما كانت طفلة، يعقبه مع ضوء الصباح عري آخر من الألفاظ، والتصرفات المنبطحة، يقبع أبوها في ركن من الحجرة يفقفق بنرجيلته التي تتوهج مع صدى شتائم أمها، وزفرات سعال أبيها، وكأنها إيقاعات مملة، يتراقص لها دخان كثيف يغلف سقف الحجرة، ويهيء جوًا مناسبًا لتطور المأساة اليومية التي تحسمها اللكلمات حسمًا قاطعًا، لتدفئها في المساء حرارة الرغبة، والحلوى لتنام الصغيرة مبكرًا.

نشأت نعيمة كأبيها تعشق حياة الليل، تخرج كل ليلة متدثرة بشال من الحرير الأسود أهداه لها ابن شيخ البلد، الطالب بجامعة البندر، وترتدي

خلخالًا مفضضًا تتبرك به، ليكون اللقاء إما في الخلاء خارج القرية، أو في غرفة من غرف الدور العالية النائية، يعشقها كل شباب القرية، فلا يتخيل أي منهم الهناء حتى يحظى بليلة من ليالي نعيمة، لا تستطيع واحدة من بنات القرية مجاراتها فيما تفعل، ولا يستطيع أحد من شباب القرية الذين سهرت معهم أن يدعي أنه رآها عارية، فلا تجود بأكثر من القبل، كما يسعدها إلقاء رأسها على كتف، أو صدر أحدهم، ولاشيء أكثر.

قادرة على نزواتها، وإلا وصموها بالعاهرة، اعتبروها متحررة كأبيها الماجن، اللاهي عنها، وعن جدتها دائمة النوم بعد أن ماتت زوجته، فربما كان ذلك هو السبب في عدم تقدم من يقترن بها، ومع ذلك لم يكن ذلك يشعرها بأي ضيق، بل ربما تمنت أن تبقى حياتها هكذا، إلى أن تقنع بمن يستحق قلبها لتمنحه جسدها كله، وهي راضية، كانت مشاعرها تتطاير بعد انتهاء اللقاء مع كل شاب في القرية، فلم يجذبها أي منهم، ولم تحب أحدهم، ولكنها تتمنى أن تحب يومًا.

كانت جماعة الشيخ الحجازي قد انتشرت في القرية وذاعت، وأصبح كثير من الفلاحين يذكرون الشيخ في شيء من القدسية، والإعجاب، وكان لابد لها أن تسمع عنه، وعن نشاطه في القرية، وخارجها، لكن ما شغل تفكيرها لم يشغل تفكير الناس، فالناس معجبون بشخصه وكفى، أما من هو هذا الشخص؟!.. وكيف يكون؟!.. فهذا ما كانت تفكر فيه، كيف يتسنى لها معرفته عن قرب، وكيف لم يسمع هو عن نعيمة؟!.. أليست من الناس الذين يردد الشيخ دائمًا أنهم في دائرة اهتمامه؟.. ألا يكون كالعمدة السابق، أو شيخ البلد، أم أنه غريب عن القرية، لقد كان العمدة يعرف أهل القرية كلهم، حتى هي بشخصها، فهل غاضت

محاسنها؟.. وهل أصبح تأثيرها الساحر لا يتجاوز شباب القرية؟

ألمت بها سحابة من الحزن صهرت قلبها، فراحت تنظر في المرآة المعلقة أعلى الحجرة، تتأمل قسمات وجهها الرقيقة، تخطو قليلًا إلى الوراء، وإلى الأمام، تتأمل قوامها، ومشيتها، لم يتغير شيء، اعتادت أن تذهب لمن يطلبها، أو يرسل لها، أما هو فلم يطلب، ولم يرسل، أرقها الفكر، وأمضها السهر، أحجمت عن الخروج عدة ليال على غير عادتها، حتى ظنوا أنها مريضة، كيف السبيل إلى هذا الرجل؟!.. هل أهملها حتى تذهب هي إليه؟!.. أم هو لا يميل إلى الجنس الآخر؟!.. هل في القرية من أحد لايعرف نعيمة؟!.. أو على الأقل لم يسمع عنها؟!

كان الشيخ الحجازي في مكتبه عندما فتح الباب فجأة، وبدون استئذان على غير العادة، فلم يكن قد طلب أحدًا، أو أذن لأحد في الدخول، حتى دهمه الصوت الناعم:

- أهو أنت؟

- يا لطيف، من أرى؟!

- من تتحدث عنها القرية، ألا تعرف؟!..

- لا أدري..

- تتجاهلني لكي آتي إليك؟!..

- ومن أنت؟!..

- وتتهرب أيضًا من معرفتي؟!..

- صدقيني لا أعرف..

- لا تعرف نعيمة؟

- أنت؟!..

- لعلك سمعت عنها؟

- كثيرًا، ولكن من أذن لك بالدخول؟!..

- لا أحد، فقط قررت الدخول، ودخلت..

في دهشه من منطقها:

- دون استئذان؟!..

- نعيمة لا تستأذن على أحد..

- ثقة؟!

- كالثقة التي تدخل بها على القلوب فلا تخضع لك إلا بالسمع، والطاعة، أما أنا فالقلوب تخضع لي بالسمع، والطاعة!

- غرور، نعوذ بالله منه!

وهي تستدير نحو الباب الذي فتحته لتخرج وهي تقول:

- جئت لأرى من أنت، ولكنك لاتعرف من أنا!

أغلقت الباب وهو يركز بصره في الباب الموصد في ذهول استمر برهة ثم انتفض مسرعًا نحو الباب:

- نعيمة، نعيمة..

لم يكن بالباب سوى الحارس الذي هب واقفًا، ومستفسرًا:

- من هي نعيمة يا شيخنا؟!

- كانت هنا..

- لم أر أحدًا!

في سخرية:

- وأين كنت يا جناب الحارس؟!..

- لم أفارق الباب منذ دخلت..

- وكيف دخلت إذن!..

- من؟!..

- السعادة..

ثم انهمك في الضحك على غير العادة، والحارس ينظر مندهشًا، ومنذ هذا اللقاء المباغت ظل ساهمًا، لايخرج كثيرًا من حجرته الخاصة إلا للصلاة، كيف يتصل بها؟!.. أيخرج للبحث عنها في أنحاء القرية؟!.. أيطلب من أتباعه، ومريديه أن يأتوا بها لتمثل بين يديه؟!.. الحل اللائق أن ينتظر حتى تأتي هي كما جاءته، ولكن من أين له الصبر على الإنتظار؟.. ومن تلك التي ينتظرها؟.. كيف ألقت به هذه الزيارة في بحر لا قرار له؟!

ينتظر كل يوم، يتفحص رواد الطاحونة في الصباح، فأغلبهم من

النساء، والفتيات، وهي؛ ليست فيهن، يركب حصانه يتجول به في طرقات القرية، يتحسس أخبارها، أين تسكن؟!.. وكيف تعيش؟!.. وعلى صدر من باتت هذه الليلة؟!.. والليلة الماضية؟!.. ثم قر قراره على شيء، فهرول إلى الحجرة المغلقة وهو يتمتم:

- لابد أن أراها الليلة.

لكنه في تلك الليلة سهر حتى الصباح، كيف لم يفكر فيها قبل الآن؟!.. كانت لجماعته جولات مع النساء، فكان ينصحهم دائمًا من التخفيف منها، وهو مع ذلك قد تركهم في لهوهم، وانقطع لأشياء أخرى، انطلقت المآذن تعلن عن صلاة الفجر، ارتجف، وتنبه، نظر نحو ساعة الحائط؛ فراعه انقضاء الليل، وهو قابع في مكانه لم يبرحه، ولكنها لم تأت، دفع الكرسي الجالس فوقه أمام المائدة، ثم تقدم خطوات نحو سريره، بدل ملابسه في كسل ليصلي الفجر، ولكنه ارتمى فوق السرير يغالبه النعاس، وفيما يشبه الحلم سمع طرقًا خفيفًا يكاد يمس باب الحجرة، هيأ له الأرق، والتعب أنها في ذهنه فقط، فلما تكررت الطرقات انتبه من نومه، مطرقًا حتى تأكد من الصوت، هب منتصبًا، وأتجه نحو الباب ساخطًا:

- من هذا المؤذي الذي يأتي في الصباح الباكر؟!

ولكنه عندما فتح الباب طار النوم من عينيه، وتنبهت كل حواسه، فغر فاه، ولم يتكلم، فهمست:

- سنقف هكذا كثيرًا؟.. هل أدخل، أم أعود من حيث أتيت؟

- أين كنت الليلة؟

- أدخل قبل بداية المحاكمة.

انسابت من بين يديه فلما دخلت أغلقه، واستدار مكررًا:

- لم تردي على سؤالي؟

متجاهلة:

- أي سؤال؟!..

بحدة:

- لا داعي للتهرب، سوف لا أتركك هذه المرة.

- سأمضي إذا استمر هذا الاستجواب.

- سوف لا تخرجي بغير رغبتي، نسيت أنني أتحكم في أهل القرية؟

- إنك تملك الرجال بالسمع، والطاعة، أما أنا فلم يملكني أحد.

- أنا أملكك.

- تستطيع ذلك؟

- استدرك، وقد أفاق من ثورته، فاستكان بجوارها معاتبًا:

- أنت سبب كل هذه الثورة..

- أنا!.. كيف؟

- عشت يومًا حالك السواد..

- وماذنبي في هذا؟

- جئت إليّ، ورأيتك..

- قابلتني بلا اكتراث..

- لم أكن أعرف أن لك كل هذا السحر.

- والآن عرفت؟

- وقر قراري..

- أي قرار؟

- نتزوج.

استولى عليها ضحك هستيري:

- تتزوجني؟.. أنا؟!

- ولم لا؟!

- أبي لا يملك من الدنيا سواي.

- سوف تكوني ضيفة مكرمة حتى أبعث إليه فأطلب يدك منه.

- سيفرح كثيرًا فمنذ ماتت أمي لا أره يبتسم، ولكنني أخشى أن يرفض هذا الزواج، فالناس في القرية لا يعلمون عن حياتك الكثير.

- أستطيع أن أقنعه برغبتي التي لا تخالف شرع الله.

- تركها في الغرفة، وهرول إلى حجرة مكتبه، طلب مستشاره، وصديقه

حامد علام، عندما رآه، فاجأه بالقرار وهو يبتسم:

- سأتزوج الآن.

تقلصت ملامح حامد، وأجاب:

- كيف تتخذ قرارًا كهذا؟

- لقد فكرت كثيرًا، حتى جاءت.

- من التي جاءت؟

- نعيمة، ألاتعرفها؟!

تنهد حامد في خبث:

- ومن لا يعرف نعيمة، ومغامرات نعيمة، ثم إنني أرصد تحركاتها لدواعي الأمن، هل أنت عاشق لهذه الدرجة؟.. أين أنت منها؟!

- أعلم أنها فقيرة.

- ليس هذا ما أقصده.

- أحبها.

- تذكر شيئًا.

- ماضيها؟!.. أعرفه.

- أليس في هذا كفاية؟

- إنها طاهرة من كل إثم، لم تكن سوي مغامرات بريئة، أعلم كل

شيء عن سكان القرية، استشاط حامد:

– أي براءة ياشيخ؟.. ما من فرد في الجماعة إلا وتمرغت في أحضانه، أتكون سيدهم بعد ذلك؟!

– رغبة، أو نزوة لتكن ما تكون، سيكن زواجًا سريًا لن يعلمه أحد من الجماعة، أو الناس، ان جماعتنا تقوم على الأسرار، فلم لا يكون زواجي سرًا من الأسرار؟

فهم حامد مايقصده الشيخ، فهو أمين سره، ومستودع علاقاته الكثيرة، فاستأذن عندما أدرك أنه لم يأت به ليستشيره، بل ليحيطه علمًا بهذا الزواج الذي سيلقي به في خزانة أسرار الجماعة من الآن، ثم اتجه الشيخ نحو الغرفة التي تجلس فيها نعيمة، وعندما رأته سألته وهي تبتسم:

– هل أرسلت إليه؟

نظر إليها، ولم يجب، أمسكت بذراعه تكرر عليه السؤال، فأجاب:

– نعم، سوف يأتي في المساء.

– سأظل معك حتى المساء، اعتبرني زوجتك من الآن.

ثم تاهت في أحلام وردية، عندما غلبه النعاس، هيأت له فراشه ليعتدل نائمًا، ثم جلست إلى المائدة ترمقه في شرود.

وفي المساء عندما لم يأت والدها كما وعدها قال:

– فعلت ما يجب عليّ، أما هو فلا يريد مقابلتي، وربما لا يريد نسبي.

– هل هذا معقول؟.. دعني أذهب إليه.

– لا داعي لخروجك من هنا هذه الأيام، فالقرية غير مستقرة بسبب اختفاء إحدى الفتيات، أخبرني بذلك مدير الأمن الذي وزع قواته في كل مكان، وأخشى إن رآك أحد خارجة من هنا فيظن بي الظنون.

– تخشى على نفسك؟.. ولا تخش عليّ؟

– أنت هنا معززة، ثم أننا سنتزوج، ولن تستطيع الألسن أن تذكرك بسوء.

ظن أنها لو خرجت سوف تذهب إلى أحد شباب القرية، فجعل يأتي لها بالحجج كل ليلة، ويماطل في خروجها وهو يؤكد وعده لها بالزواج، بدا أمامها بلا هدف، لا يستقر نظره على شيء، ولكنها لمحته يرقبها كلما بدت أمامه، تتلوى، وتنثني في ثوبها الناعم الذي لا يفلح في مواراة الشباب الطاغي، والأنوثة الراغبة، فيمكر به، ويتلاعب بشهوته المتأججة في ثوب الوقار.

يستدير وجهها، متقلدًا صهوة جيد يتوزع في اتساع نحو صدر رحب، يعلوه تلان كالزئبق الرجراج يتركان بينهما نهرًا عذبًا يتبعه الناشي ليصب به في نهر الحياة.

غمر وجهه بكفيه، وحرك شفتيه:

– لشد ما تطيح ثياب حواء بألباب الرجال السائمة..

تأمل نفسه:

- أين كنت من هذا؟!.. هذا الماء المقدس، الذي أودعه الله جسد آدم، ولم يعرفه إلاعندما خلقت حواء، هل ضجر آدم بالجنة قبل أن تخلق حواء؟.. وهو يتجول فيها وحيدًا بلا أنيس؟!.. أم سأم الصمت، والتأمل؟.. أم تراه كان يتوق للأولاد، وصخبهم؟!..

أفلح في استدراجها، أوهمها أن هذا الشيء لا بد أن يحدث مادام الزواج سيأتي يومًا، وأنه يقع تحت تأثير قوى لا يعرفها، ولا يستطيع مقاومتها، فانهارت بين يديه ذات ليلة فوق فراشه، فانبعثت العواطف حارة، يلسع لهيبها صدر الظلام الجاثم فوق الحب، حيث وقف الزمن ينظر وينتظر، أنامل تمتد، وسيقان تنبسط، وتنسحب عندما تصطلي بوهج النار، تخترق حاجز الخوف، كلما اخترقت أنامل الليل حاجز الخجل إلى حيث الحب، والأمل..

استكانت نعيمة عدة شهور لهذا الحب، حتى تحرك جنينا في أحشائها، فانقلب حالها من الاستسلام إلى الإلحاح في طلب أبيها، والخروج لرؤيته، حتى تكدر صفو الشيخ، وأحاطت به هموم الداخل، والخارج، فشحب لونه، وغزا جسمه المرض، فبدأ يشعر بوطأة السن، وثقلت حركته، فقلت جولاته، ولقاءاته بالقرية مع الأتباع، والمريدين.

دخل عليها يومًا بادي الضيق، والارتباك وحتى لا تلحظ شيئًا بادرها:

- مات أبوك يا نعيمة.

وكحلم انهار بعد انتظار، وأمل فقدت توازنها، فسقطت غائبة عن الوعي، وعندما أفاقت انخرطت في بكاء طويل، اهتز له قلب الشيخ، فواساها قائلًا:

- أجريت له مراسم الدفن كأحد الكبار في القرية.

- لماذا حرمتني من رؤيته؟

- أشفقت عليك، وعلى حملك، وقد أكرمته حيًا، وميتًا.

شيء ما في نفس نعيمة جعلها لا تطمئن لهذا الدجال، وادعاءاته، وهذا السجن الذي حكم به عليها، وهو لم يتزوج منها بعد، فلا تملك سوى نظرات في وجهه بلا رجاء، وأي رجاء؟.

ترى كيف يقع أتباع هذا الشيخ الدجال في أسر تهوياته التي لا تنتهي، وماذا قال أتباع الشيخ لأهل القرية عن اختفاء نعيمة؟.. وكيف سكت الفلاحون لاختفاء إحدى بناتهن؟

في سرية تامة وضعت نعيمة جنينها، بعد شهور الحمل، والسجن، وقد سكنت نفسها لهذه السرية، رغم ما استشعرته من مرارة لفت حياتها بالحزن المقيم، فسأمت من مطالبة الشيخ بالزواج، بعد أن كان جوابه في الأيام الأخيرة:

- وهل ينقصك شيء؟!

لم يجعلها اليأس وحده تسكت عن المطالبة بالزواج، ولكنها كانت تشفق عليه عندما تكاثرت عليه أزمات المرض التي كثيرًا ما تداهمه وسط مشاغله، وقرارته التي يزف لها آثارها في جماعته، فينتابها السرور لحظة، ثم تنقلب ساهمة في شرود طويل.

سألته يومًا، وكان بادي الإرهاق:

- من أطلق عليك لقب الشيخ؟!

- لا أسمح لك بالتدخل في عملي.

- معذرة، ماكنت أعرف أن اللقب من صميم عملك.

- دعينا من العمل الآن، ولاتدعي لقاءنا يمر بدون الحب، ضمها في عنف، قبلها، جعل ينظر في عينيها كما تعود، ولكنه شعر بالدوار هذه المرة، تهاوى من فرط الإعياء الذي لاحظته في نظراته، سقط قلبها وهي تصرخ:

- ماذا جرى لك؟.. ماذا تناولت اليوم من طعام؟

- لا شيء..

- لكنك تبدو مرهقًا.

- مشادة كلامية مع حامد أثارتني.

- نصحك الطبيب أن تتجنب الإثارة.

- دعيه بسرعة..

الرحيل

لم تشهد القرية في عمرها الطويل جنازة كتلك التي كانت للشيخ، الذي كان يحشد أتباعه في الشوارع، والميادين فيسد بهم الطرقات، ويوقف الحركة، ويتسلق الصغار الأعمدة، والأسطح، صبغ اللون الأسود حياة جماعته ليلها، ونهارها، تبارى الكتاب، وبعض رجال الدين من جماعته، وأتباعها في رثاء الفقيد حتى تجاوز البعض فوضعه في مرتبة الأنبياء،

والشهداء، وأقام البعض السرادقات التي امتد بعضها أيامًا، واجتمعوا كي يجعلوا له ضريحًا في أحد مساجد القرية الكبرى كولي من أولياء الله الصالحين، تقام له حلقات الذكر في المناسبات، وتقام الموالد في ذكراه، ويكون ضريحه قبلة لمحبيه ومريديه، واجتمع كبار الأتباع لاتخاذ الإجراءات التي ستقوم عليها الجماعة، واستعراض نتائج قرارات الشيخ، وعلاقاته مع بعض الأفراد، والطوائف داخل القرية، وخارجها، ما كرس عليه الهم، والمرض في أيامه الأخيرة، كما أساء بعضهم استغلال ثقة الناس بهم كأفراد متدينين في استحلال أرواح الفلاحين، وأعراضهم، بعد أن قتلوا من خاصتهم الكثير أيام الشيخ، بمباركته، ورضاه، أو على الأقل سكوته عما يفعل أتباعه.

تسلق جماعة الشيخ الحياة العامة من إذاعة، وصحافة أثروا بها على الفلاحين الذين لايرون إلا الجماعة، وشيخ الجماعة، وإنجازات الجماعة، فلا رأى إلا رأيه، ولا قرار إلا في صالحهم، فهو أبو الدين، والمتدينين، فلا دين خارج الجماعة.

لم يسكت أتباع الشيخ عند هذا الحد، بل تحرشوا بكل من له صلة بأتباع رفيق عوني، ومن دعا بأفكاره، واستطاعوا أن يحرضوا الفلاحين ضدهم، ويهيئوا لهم صنوفًا من العذاب.

ظن هؤلاء الأتباع أن لهم جزءً في ميراث الشيخ، سيما ذلك الذي يخول لهم حق السلطة، فتحرشوا بأعضاء المجلس الجديد بعد أن وجدوا من بعضهم آذانًا صاغية، فاقترح فؤاد إطلاق أتباع رفيق عوني للتصدي لهم، فيتفرغ المجلس لإدارة القرية، وطاحونتها الكبيرة، والتعامل بقوة مع من يخرج عن النظام، والالتزام.

أما نعيمة فقد حددوا لها مكانًا تستقر فيه لترعى ابنها، وراتبًا شهريًا، وخادمًا خاصًا يكفيها الخروج على مرأى من الناس، حتى لا يعلم أحد بقصتها، كما تجنبوا مضايقتها حتى لا ينفضح أمرها فتجلب لهم المتاعب مع الفلاحين، فسمحوا لها بزيارة قبر أبيها، وضريح الشيخ سرًا، وتحت مراقبتهم في أوقات محددة.

وعندما شاهدت قبر أبيها لأول مرة، اصطدمت بالحقيقة، فليس كما وصفه الشيخ من الأبهة، والعظمة، فلم يتجاوز مقابر الفلاحين ذات الشواهد البالية، والمائلة، عندما استدارت حولها جذبها مدير الأمن برفق نحو السيارة قائلًا:

- الآن جاء دور الشيخ.

أحكمت نقابها ولم تعلق، بل سارت كأنها في حلم تتحرك بلا إرادة، وبلا هدف، وقفت السيارة عند باب مسجد ضخم يتيه بالرخام الملون الزاهي، والسجاجيد الكثة، بساط أخضر، ورائحة العطور، والبخور يتنفسها المسجد، غطت وجهها إلا من عينين تنظران، والحرس من حولها يخلي لها المكان أينما سارت حتى وقفت عند باب صغير يعلوه عقد مذهب، سبقها الحرس لإخلاء الضريح، تركزت هنا رائحة العطر، وسحب البخور، هبطت درجات السلم نحو الضريح المحاط بأربع قوائم رخامية محزومة بشرائط من الفضة، تقف أركانًا لمقصورة فضية تحيط بضريح من القطيفة الخضراء يرتفع عن الأرض حوالي المتر، وقد ارتفع منه الشاهد في اتجاه القبلة، تعلو المقصورة من كلا الجانبين نافورتان دقيقتان يندفع منهما رذاذًا يحفظ المكان عطرًا طول الوقت.

في أركان الضريح أربع مباخر يدور عليها رجل عجوز ذو لحية طويلة،

يزكيها بالبخور المعطر، قبل أن تدخل كان الفلاحون بين راكع وساجد، ومسبح بأصوات عالية، بين شاخص ببصره نحو قبة الضريح ضارعًا، وبين مطأطئ إلى الأرض تتقاطر دموعه، والنسوة يدرن حول المقصورة، وكلما أكملن دورة تعلقن بها لحظات يتمتمن بكلمات، أخلي المكان، فسمحوا لها بالتقدم.

دارت دورة حول الضريح، تأملت الشاهد قليلًا حتى امتلأت عيناها بدموع لم تستطع مسحها من تحت نقابها، انسحبت راجعة نحو الباب الصغير، فتتبعها مدير الشرطة، وهو يهمس ماسحًا وجهه:

- «ولا الضالين، آمين»..

عادت من هذه الزيارة ثقيلة القلب، مكفهرة الخاطر، تفكر، ولا تدير شيئًا برأسها، تنظر حولها في المكان، والصمت، تغور روحها في اللانهاية، ثم دارت بعينيها في المكان، وكأنها استردت وعيها حتى استقرت على شيء!.. الباب الموصد، الحجرة التي كان الشيخ يخرج منها مجهدًا في العادة، يتقاطر عرقه، لم تفكر أن تدخلها في حياته، ولا سألته عنها، كان هو كل همها بعد أن جاءت إليه، وعاشت معه، لم تهتم بما يعمل كما كانت قبل لقائه، لايعلم أحد من الناس أمر هذه الحجرة حسب علمها، فلم يدخلها أحد سوى الشيخ.

- هل عميت كل الأبصار عن رؤيتها؟.. أم رآها كل من رآها وتجاهلها؟.. وماذا كان يقول لهم الشيخ عنها؟

أثارت هذه الأسئلة فضولها أكثر من احتمال الإجابة عنها، لم تتردد، فهي وحدها في المكان، ماذا تفعل؟!.. ربما لايكون أمرها سرًا كما تتوهم،

فكل ماتريده الآن أن تعرف ماوراء الباب، وكفى، فماذا سيكون أسوأ مما هي فيه؟!

انبعث صوت الرضيع من تحت غطائه الذي دفعه بنبضات من قدميه، فأسرعت تعيد إليه غطاءه، وتعيد إليه قطعة المطاط التي وقعت من فمه، ثم استدارت نحو الباب المغلق تعبث بقفله الثقيل، المصمت بلا فتحات، ولكنها عندما تركته من يدها فجأة ارتطم بقوة فوق قطعة معدنية بصوت مكتوم قاذفًا الحلقة التي تعلوه فانفتح القفل، انتفض قلبها في عنف، واتسعت حدقتاها، يمكنها الآن أن تزيل القفل فينفتح الباب..

عندما دفعت الباب لتفتحه أحست بثقله، وكأن شيئا وراءه، أجفلت قليلًا، ثم أعادت المحاولة، انفتح جزء منه بعد أن خرجت نسمات باردة اقشعر لها جسدها، ماذا وراء الباب؟!.. نظرت خلفه في فضول، ثم جالت ببصرها في سائر الحجرة، لا شيء أيضًا سوى الهواء البارد، وفي ركن من الأركان وقع بصرها على سندان، تجاوره مطرقة ثقيلة، وفي حركة غريزية رفعت المطرقة لتدق بها على السندان فتغير شكل المكان، وظهر مارد أسود ملأ كل حدود الرؤية، دار بعينيه سريعًا في المكان ثم سقط بهما نحوها وهو يتساءل:

– من الذي جاء بي؟.. وماذا يريد؟

حدث كل ذلك في لحظة، هرب الدم من أطرافها، تخاذلت، كادت تسقط، توقف كل تفكيرها بين الفرار، والبقاء، وبلا إرادة ردت عليه:

– أنا لم أفعل شيئًا.

- ولكنك أمرتيني بالحضور، فجئت مسرعًا.

في تردد، وحيرة:

- كيف، وأنا لا أعرفك.

- ولكنني أعرفك.

في ذهول بعد أن لملمت كل قواها، فتماسكت، واطمأنت:

- كيف؟!

- أنت زوجة الشيخ.

- لم يتزوجني.

- أعرف ذلك..

- كيف عرفت؟!

- الشيخ يستشيرني في كل أموره.

- لكنه مات.

- أعرف ذلك أيضًا، فأنا الذي جعل له هذا المقام الذي يؤمه الفلاحون، ويتباركون به، بعد أن جعلته بطلًا شعبيًا يقدسه الفلاحون رغم المصائب التي ابتلوا بها تحت بصره، أنا الذي جعلت القرية، ورجالها يدينون له بالسمع، والطاعة.

سألته في خبث وقد عاد إليها تفكيرها، واتزانها:

– أصدقك في كل ماتقول، ولكن كل هذه الخدمات الجليلة استفاد منها الشيخ، فما جزاؤك منه نظير ذلك؟

في سخرية:

– هذا سر بيني، وبينه، سترته وهو حي، فكيف أكشفه وهو ميت؟!.. وأكثر من ذلك أنا الذي مهد له السلطة على أتباعه، فأسكرتهم بزعامته لهم، وأنا الذي مكنته منك، وقدمتك إليه دون أن تشعري بذلك، جعلتك تحبينه حتى رضيت بسجنه، ورضيت بولده الذي تركه لك بلا زواج، فأغريته بقتل أبيك، وإقناعه لك أنه مات لتسكتي عن إلحاحك في رؤيته، أنا الذي دبر للشيخ إقناع الفلاحين، وسكوتهم عن اختفائك المفاجئ، وإلى هنا تدفق الدم في رأسها، فانفجرت تصرخ:

– كفى، كفى.. أما أنا فأستطيع سجنك إلى الأبد، إلى الأبد، أتفهم؟.. وأستطيع هدم الأسطورة التي أصبحت مقامًا يحج إليه الفلاحون، سترى ذلك، والآن، ثم حملت السندان، وأسرعت تلقيه في أحد سراديب الطاحونة، ثم طوحت المطرقة من أحد النوافذ، وهرولت نحو الدهليز تحمل فأسًا، وعندما همت بالخروج سمعت بكاء طفلها، فسكنت قليلًا، أسرعت نحو فراشه، حملته بيد، والفأس في يدها الأخرى، أحكمت لثامها، إنها تعرف هدفها الآن، وتعرف ماذا ستفعل.

على باب الضريح كان الفلاحون بين راكع، وساجد، ومتعلق بالستائر الخضراء، ومتمسح بالمقصورة، هؤلاء الفلاحون، والحرس لا يعرفونها وهي ملثمة، ولا يرون الفأس الموارى في ملابسها كسيدة تحمل طفلًا، تدور حول الضريح، وظلت تدور حتى أرهقها الدوران، وضعت الطفل في ركن على مرأى من خادم الضريح الذي ظل يطلق البخور، وواصلت

الدوران، وكأنها دوامة حياتها، عاصفة تهب داخل الرأس الصغير لا يراها من بالخارج، والفلاحون في تضرع، وبكاء طويل، وكأن البكاء خلق من أجلهم، ويشهدون صاحب الضريح على أدعيتهم، ويستغيثون به.

صرخت في الوجوه الذابلة:

- كفى، كفى.. إن الشيخ لايسمع شيئًا، ولايملك شيئًا، سأريكم، سأريكم، وهي ترفع طرف فستانها الطويل عن الفأس، وتنهال به على الضريح حتى تحطمه، وسط ضجيج الفلاحين، واستنكارهم:

- ما هذا ياكافرة؟.. يا كافرة!.

وهي تصرخ فيهم:

- لست أنا، اتهموه هو.

اسألوا العراف النائم في هذا الضريح الذي تقدسونه.

اسألوه عن نعيمة أين ذهبت؟!

وأين كانت؟

اسألوه من وضعه في هذا الضريح الذي تقدسونه؟

من جعله يستعبد عقولكم حيًا، وميتًا.

من سلبكم حريتكم فلا تأمنون على أنفسكم، وأموالكم.

حتى بنى الخوف هياكله في جماجمكم.

ألغى عقولكم عندما تركتوه يفكر لكم.

وعطل إرادتكم.

أسكنكم في قصور من الورق وسط العواصف.

تقمصتم أفكارًا، وخيالات في أذهانكم فقط.

ولا تمت للواقع بصلة.

سلبكم أعز ما لديكم فكيف أنتم الآن؟

وكيف تسيرون؟

إن العالم خارج الضريح يموج بالحركة، ويسير إلى المستقبل.

توقفتم، وسكنتم الضريح، وجعلتموه ملاذكم.

وجلستم للعبادة في ظله.

وتعلمون أن السماء لاتمطر ذهبًا، ولا فضة.

ولا تهب الكسالى إلا المرض والموت.

إلى متى تلوذون بخزعبلات الشيخ التي يجب أن تموت معه.

يجب أن تموت.. تموت كما مات.

لم يمهلها رجال الأمن هذه المرة بعد أن انتزعوا الفأس من يدها، فراحت تدق الضريح المحطم بكلتا يديها، وتركله بقدميها حتى سال منها الدم، وتمزقت ملابسها، وهم يجذبونها خارج الضريح الذي ملأه الصخب، ويبعدون عنها تطاولات الفلاحين الذين أصيبوا في الصميم،

وعلا صراخ طفلها الذي لم يسمعه أحد سواها، حاولت التخلص من قبضتهم فلم تستطع.

اتجهت بهم نحو ابنها بكل قوتها، حمله رجل البخور ذو اللحية، بعد أن أطفأوا المواقد حتى لا تقع الكارثة، وحتى لاتطأ أقدام الفلاحين الهائجين جسد الطفل المسكين، بعد أن غص بهم المكان، وهم يحملون فؤوسهم، وعصيهم يريدون قتل الكافرة التي بدت الآن أمام أعينهم، وانتهت إلى ما انتهت أليه أمامهم، بل يجب أن تنتهي هذه الكافرة، الفاجرة، يريدون أن يخرجوا بها خارج الضريح كي يقتصوا منها، ويريحوا العباد من شرها، تلك التي جاءت تعبث بمقدساتهم، وعقولهم، بعد أن لعبت بقلوبهم.

ومع صراخها المتشنج، وصراخ طفلها السليب، ومناوشات الشرطة للفلاحين حتى لا يقتلونها، إذ يجب تسليمها إلى أعضاء مجلس الإدارة للتحقيق معها، ومعرفة دوافعها، فربما كانت أيد أجنبية دفعت بها إلى ذلك.

وكالعادة شكل لها أعضاء المجلس محكمة عاجلة منهم، وبلا كثير تردد حكموا بنزع الطفل منها، وتسليمه إلى مربية لترعاه، فقد رأوا أن أمه أصابها الجنون، ويخشون عليه منها.

أما هي فلم يفكر أعضاء المجلس في قتلها، بعد أن أصبحت عبئًا عليهم، فقد تحرك في قلب كل منهم ذكرى الشيخ، وتهوياته.

وهناك في السجن فوق الجبل لا زالت نعيمة ترسف في الأغلال، وتهذي بكلام لايفهمه أحد، ولا يسمعه سوى حراسها البسطاء الذين لايملكون لها شيئًا سوى الرثاء، والشفقة.

وظل آزر يعبد الأصنام

الجسد الهزيل يتمدد فوق الفراش الوثير..

ينتفض من وطأة الحمى..

تكتظ الحجرة بالزائرين بين جالس، ومغادر..

ثم ينفض الجمع ليخلو الحاج صالح بنفسه فيغيب في إغفاءة..

وفي رفق يدخل إبراهيم - الابن الأصغر - يحمل بعض الأشياء..

يضعها إبراهيم فوق منضدة صغيرة تتوسط الحجرة الكبيرة؛ ويتجه نحو فراش أبيه يهزه هزًا خفيفًا فينتبه ممسكًا يد إبراهيم الذي يقبله ثم يهمس في أذنيه:

- الشيخ حسن يجلس في الخارج، يريد مقابلتك، هل أعتذر له؟

كان ذكر الشيخ حسن كفيلًا بانتفاض الرجل الذي اعتدل جالسًا:

- دعه يدخل يا إبراهيم أنا على مايرام..

لم ينتظر الشيخ حسن الذي دخل فعلًا؛ وهو يلملم عباءته، ويفرك مسبحته:

- لعلك اليوم سليم معافى إن شاء الله يا حاج صالح..

صمت الحاج ولم يرد، حين استقر الشيخ حسن بجسده الضخم قبالة الحاج صالح؛ وكأنه يريد أن يسر له بشيء، فجعل يدور بعينيه بين إبراهيم، وأبيه وهو يعبث في لحيته ذات الشرائط البيضاء، يطلق شيئًا من المواعظ التي ينشرح لها قلب إبراهيم فيبتسم للشيخ الجليل..

ثم جاءت القهوة التي خطفها الشيخ، وراح يرشفها حتى الثمالة التي لعقها أيضًا، وجعل يتلفت حوله، ويجول ببصره فيما بين إبراهيم وأبيه، تردد قليلًا ثم بادر الحاج صالح متسائلًا:

- ماذا عن الأرض التي حدثتك عنها؟

- حظك من السماء ياشيخ حسن..

- يعني خالصة إن شاء الله لا ضرائب عليها، ولا قضايا؟

- كله في السليم..

- على بركة الله، متى نتسلم مستندات الملكية؟

- رجالنا يقومون باستبدال البيانات، وضبط الأوراق حسب القانون..

- وأنا جاهز إن شاء الله بالمطلوب..

وهو يهب واقفًا، ومعتذرًا حتى لا تفوته صلاة العصر في جماعة، يقف إبراهيم أيضًا لتوديعه..

سعد إبراهيم كثيرًا قبل ذلك بزيارة الشيخ، ولكنه بعد هذا الذي دار بينه وبين أبيه امتعض منه، وبعد أن اعتاد مرافقته حتى الباب الخارجي؛ تركه هذه المرة لينصرف عند باب الحجرة، ثم عاد إلى أبيه مسرعًا:

- كيف تطاوع هذا الرجل فيما يريد؟ ولماذا تتورط معه؟

والرجل في صمته لا يدري كيف يخرج منه، ولكنه استجمع كل ما استطاعه من شجاعة، وأجاب في اقتضاب:

- لقد وعدته..

- وعدته أنت الرجل الشريف، نظيف اليد؛ هل احتال عليك؟

وكأن الحاج قد غاص لسانه في حلقه فلا يجده، واصل إبراهيم:

- لا بدّ أن تخرج من هذا الوعد الملعون..

تمالك الحاج نفسه قليلًا ليجيب مصرًا:

- لا أستطيع، جئت متأخرًا يا إبراهيم..

انتفض إبراهيم:

- كيف لا تستطيع؟!.. لا تستطيع أن تعتذر له؟.. أن تجعله يثوب إلى رشده، أليس عالمًا بالحلال، والحرام؟.. ألا يعظ الناس؟

- نعم، ولكن..

- ماذا؟!..

- الشيخ يعرفني، يعرفني من زمن، ويعرف كل شيء تقريبًا..

هدأ إبراهيم من ثورة نفسه، وتنفس بارتياح، وملأ عينيه من أبيه، شعر بالتضاؤل أمام العملاق، والمثل الأعلى:

- كل خير عنك بالتأكيد؛ أليس كذلك؟

حار الرجل، فماذا يقول لابنه الذي راح يتوسل إليه:

- بالله عليك يا أبي لا تتورط مع هذا الرجل وأنت شيخ كبير، هل تختم أيامك بهذا العبث الرخيص؟!.. سألقنه درسًا عن نزاهتك، وكفاحك المشرف لن ينساه..

يصفع الباب مهرولًا إلى الخارج وسط توسلات أبيه..

في بيت الشيخ الذي اندفع داخله، وهو يبدي استغرابه لهذه الزيارة المفاجأة، ابتدره بالسؤال:

- هل بعثك أبيك في شيء؟

- جئت من نفسي..

- خيرًا ياترى..

- بشأن ماتحدثت فيه مع أبي..

- وماذا في ذلك؟!..

– أرجو منك أن تعفي والدي من هذه المهمة..

– أبوك قال هذا؟

– هذا طلبي..

– كيف يا ولدي؟.. أنا أريد الأرض، وأبوك خير من يستخلصها من الحكومة، وكله بحسابه، ألا تحب الخير لأبيك؟.. الذي هو الخير لك أنت، وأخوتك.

– لا أفهم كلامك عمي الشيخ حسن..

– أبوك يمكن الاعتماد عليه، فهو يعرف طرق الحكومة، ويعرف التعامل معهم..

– كيف؟

– أنت صغير على كل هذا، وأنا أعرف والدك قبل أن تأتي في هذه الدنيا عندما استقر في هذه المنطقة..

– وهكذا تكون آخرة العشرة؟.. ورطة!..

– ورطة؟!.. أي ورطة يا ولدي، الأمر لا يصعب على والدك فقد قام بذلك مرارًا، وأنا لو تأكدت من ضرره ماطلبت منه ذلك، وقد كنت أساعده دائمًا، وأحب له الخير لأنه رجل كريم على من حوله..

– تساعده؟!.. كيف؟!..

– كنت أجلب له الزبائن؛ فالناس تثق بي كما تعلم، وما آمرهم به يفعلونه، وربما بلا تفكير..

امتقع وجه إبراهيم، وجف حلقه، وكأن كابوسًا يطارده رغمًا عنه، ولا يستطيع له دفعًا، ولا هربًا، والشيخ يواصل كلامه:

– لم تعد صغيرًا يا إبراهيم، ولم يعد أبوك محتاجًا إلى شيء، رجل ذكي يستطيع استغلال أي شيء حوله، ويستطيع اصطياد القروش وينميها..

الذهول يغرق إبراهيم في الصمت المطبق، وقد تخاذل لسانه، وغاصت الكلمات في حلقه، وأحس أن الشيخ قد امتطى لسانه الجامح الذي انطلق بلا عودة:

– عندما استقر أبوك في هذه المنطقة كانت خالية تمامًا إلا من بعض البيوت القديمة المتناثرة، وكانت الأراضي الشاسعة حولها لا يعرف أحد مالكها الحقيقي، ولم يسكت أبوك حتى عرف أنها أراض موقوفة، ولم يهدأ أيضًا حتى عرف كيف يستغلها عن طريق أحد موظفي الأوقاف الذي تعرف عليه، واقتسم معه ما كان يستخلصه من أراض يبيعها للناس حتى ملأ العمران المنطقة كلها، وامتلأ أبوك بالأموال فهجر تجارة الأرض غير مأمونة العواقب، وافتتح متجره الكبير، وألحق به مخزنًا لجمع الغلال كما تعرف..

غامت كلمات الشيخ الأخيرة فلم يسمع منها إبراهيم شيئًا، فراح في سبات قطعه عما حوله..

تدلى رأسه فوق صدره؛ وهو ينسحب في هدوء بعد أن أحس أن كل ما بداخله ينهار في قوة..

تصاعد بداخله غبار الحطام تبدد أغشية الحلم العظيم الذي عاشه كل هذه السنين، فانهار كل ماهو مقدس..

يسمع في نفسه هدير الحطام..

كل شيء يتكسر.. يتبعثر..

أي شيطان ملعون كان يتربص به؟

وأي شيطان ملعون نزغ بين إخوته ليستأثر كل منهم بتجارة أبيه الكبيرة..

وهو يهيم على وجهه في الطريق..

يجرجر قدميه التي يقهرها على السير..

ويلملم أشلاء نفسه التي تناثرت..

كيف يعود إلى البيت؟!..

وأين يذهب إذا لم يعد؟!..

وكيف يلقى أباه؟

أبوه الذي أحبه كثيرًا، وفعل كل ما يرضيه، كما تفانى أبوه في رعايته، فهو الأثير عنده عن سائر إخوته على كثرتهم، فلا يأكل إلا إذا كان موجودًا، ولا يجلس في البيت إلا إذا سأل عنه، يطمئن على أخباره، ارتبط به برباط من الفولاذ يقوى عندما يشعر بحدبه عليه، وحنانه، ويبلى منصهرًا عندما يقترب من والده أكثر فأكثر ليرى وجهه وقد علته التجاعيد، وحارت فيه الأخاديد، عيناه غائرتان يطل الموت من محجريهما، والتهب الشعر شيبًا تلتهم ما عداها من شعيرات سوداء فتبدو منهزمة من جحافل الشيب، إنه يبكي عندما يتصور أن هذا الفيض الغانر ربما ينطفىء فجأة، نعم إن

عمر أبوه على الأرض قد صار معدودًا بالأيام، وهو غض يستقبل الحياة..

في البيت بدأ أبوه المتعب قلقًا لغيابه، وبدا متوجسًا من مجيئه؛ حتى إذا دخل عليه، واطلع على ملامحه الغائرة في الحزن بادره مستسلمًا:

– ربما تمنيت أن تعرف الحقيقة يا بني في يوم من الأيام، وتمنيت أن تعلمها من غيري؛ فقد تقع في نفسك منقوصة، أو على قدر من التجني، فيبقى لديك فضل احترام لأبيك، أو بعض التماس للعذر..

– لماذا نتعلم الفضيلة، والشرف ولا نمارسها؟!..

– لكي يبقى بداخلنا شيء من احترام النفس لنواصل الحياة، وكيف نعترف بخطايانا لولا علمنا بالفضيلة، والشرف؟

– فقط من باب العلم بالشيء؟

– ومع هذا فكله من أجلكم..

– القليل كان يكفينا..

– كنت تريد أن أنتظر اللقمة، واللقمتين لتسد أفواهكم المفتوحة؟

– المشكلة أننا نأكل حتى التخمة، ونختزن القروش حتى الثروة، ثم يأتي الحرص، والجشع..

– لقد منحنا الله الحياة لنعيشها، ونتمتع بخيراتها..

– تتمتع بها وحدك دون الناس؟

– الناس لا يحترمون إلا من تميز عنهم، والاحتياج لهم يحط من

كرامتك، ومن حريتك..

– وماذا عن الدين، والأخلاق، أليس فيهما رادعًا؟

– ومن منا يحيا بلا دين؟.. ولكن الحياة تصرخ فينا لنعيش دنيانا..

– الدين يحتكم إليه الناس..

– ولكنه لا يدين الناس لأنهم يتلقون تعاليمه في الصغر، فإذا كبروا، وأصبحوا مسئولين فإنهم يحرصون على ألا تكون أمعاؤهم خاوية، وإذا ملأوها اختلطت عليهم السبل، وعند ذلك لا يجدون وقتًا للتمييز..

– وماذا عن الموت؟

سكت الرجل، ولكنه تحامل على نفسه، وأمسك يديه يدلف به نحو المقابر القريبة ليقف به تجاه شجرة اختفت جذورها داخل المقابر، تأملها قليلًا ثم أشار إليها:

– هذه الشجرة غرستها ذات خريف عندما واريت أمك التراب، لقد اختطفها الموت وأنا أنظر، لا أملك لها نفعًا بعد أن مذق المرض صدرًا كان يعلو، ويهبط، وقطع أنفاسًا تتردد، تحصيها الدقائق الأخيرة، لم يكن بالبيت قرشًا لشراء بقية من سعادة بعد أن غارت السعادة بكل ما لدينا من مال يسير، تمنيت يومها لو لم تكن زوجتي، ماذا لو كانت لدى رجل غني يدفع عنها غائلة المرض؟.. وعندما احتبست أنفاسها قررت ألا أحيا بلا مال، أما هذه الشجرة فقد استقامت فوق الأرض بعد أن كانت ترتعد هلعا وهى تبدأ حياتها، وتندب حظها في عالم الموت الكئيب، انظر إليها الآن وقد امتلأت بالحياة، وتعملقت فدفعت بجذورها داخل المقابر

لتفتت أوعية الموت الصلبة، وكأنها تنازله وتقهره، إنها يا بني رسول الحياة في عالم الموت الذي لم تعد تهابه، إنها عظمة الحياة تخطر فوق الموت، أنامل ضخمة توقع أنشودة الحياة فوق أوتار جوفاء.

ينسل إبراهيم رويدًا..

وكلما غار في البعد بدا كلام أبيه كأغشية الحلم الواهية..

كان لسان أبيه، لقنه إياه صغيرًا، وشابًا يخطو أولى خطواته في الحياة..

ينساب في طرقات الموت الضيقة..

يتأمل السحب السوداء فوق المقابر الصماء..

تخفي وراءها قمرًا ناصعًا..

بينما ظل آزر أمام الشجرة يعبد الأصنام..

توجس

ودخل عليّ في الصباح الباكر، بعد أن أمضيت الليلة ساهرًا..

ولم تزل الظلمة تعلو الأفق؛ وهو يشعل سيجارته:

- السلام عليكم، لماذا لا تنم الآن..

- سأذهب إلى الجامعة..

- يعني حوالي الثامنة تقريبًا؟

- إن شاء الله..

- إذًا نم هذه الساعة..

- أخاف أن يستغرقني النوم، فأفيق متأخرًا..

وما أن أنتهيت من الرد عليه حتى كان هناك عند الباب الكبير..

يفتحه ويخرج مسلمًا، بعد أن اجتاز غرفتي مسرعًا..

حتى إذا ما أغلق وراءه الباب؛ انتفضت خارجًا إلى الشرفة..

أنظر في غبش الفجر؛ والصبح لم ينجل بعد..

فيسترق سمعي خطو أقدامه المنتظمة على أثر خاطرة شيطانية:

- ماذا لو مات رب هذه الأسرة، أو حدث له مكروه؟

- هل نصير بلا عائل؟!..

ويجول بصري في السماء المحيطة، وكأني أستجلي المصير..

فانتابت جسدي رعدة من البرد؛ وخطواته الرتيبة تبتعد..

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

بينما أتوارى خلف الشرفة لأحتمي من برد الصباح..

وجبة مسمومة

انعطفت من ميدان رمسيس إلى شارع كلوت بك بعد أن فرغت من شراء بعض الحاجات، والكتب، وراق لي طبق من الكشري حين تذكرت الجوع، وواجهتني الأواني النحاسية المرصوصة، تتوسطها حلة لامعة تتصاعد منها أبخرة الصلصة، والفلفل، والتوابل، فكان هذا ما أقنعني ألا أتراجع تجاه هذا الإغراء المباغت، وما هي إلا لحظات حتى احتواني المطعم في جوفه ليتلقاني أحد الخدم الذي انحرف بي إلى قسم آخر من المطعم لا يبيع الكشري، وأنا أصيح وأكرر في وضوح:

- أريد طبقًا من الكشري..

بينما يتمتم بأنه سيلبي كل طلباتي، فطاوعته حتى أجلسني، وإذا به يعرض على قائمة طويلة من الخضروات المطبوخة، واللحوم، والأرز، والمكرونة بأنواعها، ودون أن ينتظر مني أدنى إشارة بالاستجابة إلى

أحدها فقد قرأ في وجهي على ما يبدو تصميمي على طبق الكشري الذي دخلت المحل لأجله، وما هي إلا لحظة حتى أحاطني هذا الشيطان بعدة أطباق من الأرز، والخضر المطبوخة، وارتعدت حين باغتني بطبق اللحم، وعلى الرغم مني انسابت يدي خفية نحو جيبي غير العامر، فلا أعتقد أن ما تبقى من نقود يكفي للرد على هذا الهجوم المباغت من هذا الرجل الذي ما أظنه إلا داعية محترف يجيد تصريف بضائع المحل..

أغلق على هذا الهجوم منافذ الشهية؛ وأنا أتجول ببصري في أرجاء المكان، أنظر إلى هذا، وإلى ذاك، لماذا اختارني هذا الأحمق ليضع أمامي كل هذه الأطباق التي تكفي لثلاثة أشخاص برح بهم الجوع، وكل الذين جلسوا للطعام لا يتناولون سوى صنف واحد، هل راقت ثيابي وغررت بهذا الملعون حتى يجلب فوق رأسي كل هذه الأصناف، ثم ماذا أنا فاعل؟.. أتظاهر بالأكل حتى لا ينكشف توتري، ياله من كشري حقير جاء بي إلى هذا المكان، وجعلني ألتقي بهذا الشقي..

دب السأم في نفسي بعد أن طالعت، وتفحصت كل المعلقات فوق الحائط، ضقت بما أفعل، وبما أضيع من الوقت، والخادم الملعون يرقبني غير بعيد يتحين فراغي من الطعام، وفي عصبية دفعت المنضدة أمامي محدثًا شيئًا من الضجة لم يلتفت لها الجالسون كثيرًا، كلهم في شغل؛ فربما تفوقت لذة النهم عندهم على لذة التطلع، والفضول، أما هذا الأحمق سرعان ما قفز نحوي صائحًا:

- بالهناء، والشفاء يا أستاذ..

لم أعبأ كثيرًا بما قال، بادرته حتى لا يعقب بكلام آخر:

- الحساب من فضلك بسرعة..

تنفست في هدوء حين علمت أن ما معي يكفي، ويزيد بضعة جنيهات، صممت أن أدسها كلها في يده، وأبقيت على واحد منها؛ فهو سبيلي إلى البيت بالأتوبيس..

فئران وأسود

وقفت السيارة الأنيقة التي تقل الأستاذ مسعود، مدير مخازن الشركة أمام مكتب الأمن، بينما يسجل عامل الأمن رقمها، واسم سائقها، وراكبها..

إجراءات لا تكاد تستنفذ الدقائق الأولى بعد ساعة الخروج..

أما هذه المرة فقد طال انتظاره، ينظر عامل الأمن في جوف الحجرة التي يربض بداخلها مديره عزيز سليمان أمام مكتبه، وكأنها إشارة متفق عليها..

نعم.. عزيز سليمان الذي ينقبض لرؤيته، هذه المرة ارتبك الأستاذ مسعود عندما هم عزيز بهز كتف السائق الذي تسمرت يداه بعجلة القيادة وهو يصيح بقوة:

- انتظر قليلًا.. ثم التفت إلى عامل الأمن بلهجة أثارت الأستاذ مسعود الذي اكتفى بنظرة متقدة:

- افتح الصندوق الخلفي..

هرول السائق إلى الخلف بينما صمت الملتفون حول السيارة، تعلو وجوههم مسحة الشماتة، والاستفهام، ينقلون النظرات بين الأستاذ مسعود، وعزيز سليمان، وعامل الأمن..

أي نذير شؤم صادفه هذا الصباح؟.. وأي مؤامرة دبرها له هذا اللعين مع الشيطان؟.. يتصور كل المصائب إلا هذا الشخص، يعرفه منذ أن كان عاملًا، تنسم حقده كلما رقى درجة، وعندما حصل على بكالوريوس التجارة، والآن سيودي به وبمركزه بالشركة..

حتى هؤلاء المتطفلين من العمال، والخفراء، وهو الذي يعطي هذا، ويمنع، ويجعل آخر يدور وراءه يومًا، أو يومين، كل من قال كلمة منهم أهون عنده ممن سكت، واكتفى بالنظر..

الأستاذ مسعود تنتظر سيارته التفتيش، والتفتيش الدقيق، إنه لا يكاد يجتمع على قرار، أيظل ساكنًا بالسيارة، أم يهم بالنزول ويواجه الموقف كيفما يكون، إنه لو ظل كذلك سيفتح عليه هذا الشيطان باب السيارة بقصد مواجهته بالتهمة، وهي فرصة لهذا الشيطان أمام البوابة الرئيسية، حيث الداخل والخارج، أي شرارة من سعادة أبرقت في رأس هذا الشيطان، الذي دبر وقدر..

يبد أنه أفاق من أفكاره هذه على صرخة بدرت من عزيز سليمان الذي أمسك بعلبة مستديرة من الصفيح، يقفز بها نحو باب السيارة الذي

خرج منه الأستاذ مسعود هذه اللحظة:

– لمن هذه؟.. هي لك طبعًا فكيف يستطيع السائق الخروج بها من المخازن، يا سيادة مدير المخازن..

تحشرج صوته منكرًا:

– لا.. لا.. ليست لي..

– إذن.. من الذي وضعها؟

قالها عزيز سليمان، وهو لا ينظر إليه هذه المرة، بل إلى الجمع الملتف حولهم، وكأنه يهيب بهم أن يتكلموا:

– ربما قفزت في السيارة..

– أو حفظها بعيدًا عن الأعين فنسيها..

– طبعًا.. مدير المخازن.. ماذا سيتذكر؟

– إنها علبة صغيرة.. ربما لم يرها..

– وهي من الصفيح.. ليس لها قيمة..

– نعم ما قيمتها؟.. دعونا نرى ما فيها..

– نعم نرى ما فيها..

لم ينتظر عزيز سليمان، لكنه أراد أن يشبع فضولهم، فأمر بمطرقة، وسكينًا لفتح العلبة..

- مسحوق ذهبي للطلاء..

- نادر الوجود بالأسواق..

- إن الأستاذ يمارس التجارة بعد الظهر..

- سمعت أنه يجدد طلاء شقته الجديدة..

لم يعد يحتمل، وسياط الشمس يلتمع وقعها فوق رأس عزيز سليمان العارية، فتبرق مع صوته كالرعد، جمع الأستاذ مسعود قوته صارخًا:

- كفاكم يا غجر، كيف تجرؤن، ثم مالكم، والأمن، وشئونه..

ثم التفت إلى عزيز سليمان:

- كان ينبغي أن يكون هذا الاكتشاف في مكتبك يا.....

استدرك عزيز سليمان صعوبة الموقف الذي أصبح فيه كمن خلع ملابسه أمام هذا الجمع، أو كمن أشعل نارًا في ذروة الحر:

- اتكل على الله يا بني أنت وهو، لم يحدث شيء لكل هذه الضوضاء..

انفجر الذعر فيهم من صوت عزيز فهرعوا خارجين..

وفي طريق العودة، انساب تفكيره في الأسطى مرزوق، العامل بالشركة مع بعض صبيانه، كيف اقترح عليه استعمال هذا النوع بالذات؟!..

- وكيف صدقه، وأي شيطان أقنعه بقضاء هذه الحاجة من مخازن الشركة؟!..

- ولماذا كل الذي حدث، وقد وعده بمبلغ محترم بعد الأعمال التي

قام بها في شقته، وفي شقق بعض أقاربه، ثم إنه وعده بمكافأة من الشركة، ماذا يريد إذن؟!..

- كيف سينظر له بعد ذلك؟

- وكيف سينظر إلى مستخدميه، ومديريه بالشركة؟

في صباح اليوم التالي عندما انطلق بوق السيارة التي تقله إلى الشركة، نزل الأستاذ مسعود من بيته بلا حقيبة يحملها هذه المرة، إلا ورقة بيضاء أعدها لرئيس الشركة، ناولها للسائق، وعاد من حيث أتى..

في ذكرى مدام سلوى

كان شخصها هو المرض بكل ماتحمل شخصية المريض من رفض، وتحدٍ للحياة، وكأنها تعرف قدرها في الحياة، وقدر الحياة فيها فتصدر تصرفاتها من نبع واحد، وتؤدي إلى شيء واحد هو أن تعيش أيامها المعدودة في الحياة كمن عاش حياته الممدودة، والضاربة في السنين؛ فهي لا تذكر الموت، أو تقسم به مع أنها تضمر في شعورها أنها تسير على أكف الموت، وتجري بين أصابعه، وتحس وطأة هذا الجسد الذي سيؤل يومًا إلى التراب والفناء، فترى أن الحياة يجب أن تغمرها بكل دقائقها؛ فتنجذب إليها وكأنها تود لو تفرغت لها الحياة وحدها..

اندمجت روحها في روح المغامرة؛ فكانت مغامرة في الحب، ومغامرة في اجتياز أبواب النجاح، والعمل من أجل إثراء هذا الحب، واحتوائه والذي توجته بابنتها «منى» ربما تشقى في الحياة بدون أمها، ولكنها ستبقى في ذاكرة الحياة، فإذا اندثرت فردًا فقد أتاحت للحياة فردًا..

الوليمة

رشوان شاب أشقر، متناسق الملامح، تبدو الليونة في أماكن كثيرة في جسمه، يلح عندما يجتمع بأصحابه على تأكيد رجولته، فهو أشدهم حرصًا على تعقب البنات، والساقطات من النساء، والغريب أنه يجد استجابة منهن حتى أنه قد يقدم إحداهن لصديقه إبراهيم عندما لا يجد سبيلًا للقائها..

لايستقر معهم في مكان حتى يستهل الجلسة بأنه قادم للتو من إحدى المقابلات مع إحداهن ليصيبهم الإحباط، وقد يروي بعض التفاصيل التي يسخر منها إبراهيم مما يجد فيها من المبالغة، والتهور، فترتسم على وجهه مرارة ذكرى أول لقائه برشوان عندما دفع عنه أذى بعض الزملاء الذين كانوا يتحرشون به في الشارع، أو احتيال أي منهم في الذهاب إلى بيت رشوان بحجة المذاكرة، والمبيت..

وإبراهيم تبدو ملامحه القاسية متناسبة مع صدره القوي، وعضلاته المفتولة، شهم، لايقبل ظلمًا من أحد عليه، أو على غيره، تنفر البنات من صلابته، وحدته فيستعين برشوان..

خرج إبراهيم الليلة كعادته للسمر اتفاقًا على ما يدور في مجلس السمر من متعة، ولهو، وعندما التقى بأصحابه أمام منزل أحدهم اصطحبوه إلى حيث ينتظرهم آخر هناك..

بيت قديم يكاد يتوه في زحمة المباني من حوله، يلف المكان ظلام تجاهد بعض رخات النور في اكتنافه، يصعدون سلمًا تتداعى حوافه منهارة بين البلى، والظلام، يتلقاهم باب الحجرة ذات الفناء الواسع، والعاري من أي فراش، تتوسطه منضدة صغيرة؛ تتنافر أجزاءها التي لا تمت إحداها إلى الأخرى بصلة جنس، أو لون، تنفر منها المسامير التي تطل برأسها على الجالسين..

يصطف بعضهم فوق سرير يعلو كثيرًا فوق الأرض، تعلوه حشوة كبيرة، وغطاء يرتجفان عندما يتراقص السرير على وقع ضحكاتهم، وآخرون تربعوا فوق أريكة ذات حشوة بالية مكفهرة، وفى مواجهتهم من الجهة الأخرى خزانة ملابس تهشم زجاجها، وثارت أدراجها، وتدهدلت أبوابها من الفراغ، والبطالة..

ما أن استقروا في مجالسهم حتى سحب أحدهم صحن كبير يمتلىء بالرمل، والفحم، وقوارير الدخان المعسل، وبعض اللفائف الزيتية الداكنة، وضعه فوق المنضدة المتهالكة، وانحنى مرة أخرى ليرفع نارجيلة ذات ساق طويلة من الغاب الدقيق، وخرج صوت منهم يعلن عن بدء

الجلسة، وكأنه سلام الافتتاح:

- مساء الفل على الموجودين، ليليتنا بيضاء بالصلاة على النبي.

تقدم أحدهم ليشعل عودًا من الثقاب في الكومة التي قام برص فحمها الشخص الجالس إلى المنضدة محييًا، ومباركًا السهرة:

- مساء الورد..

ومع ضجيج المتحرقين شوقًا إلى غب الدخان الأزرق؛ تم إعداد النرجيلة، وإحكام رصها لتبدأ الدورة على الجالسين بإبراهيم الذي استهلها بسحبة طويلة اخترقت الصدر، والرئتين، نثرها بعد وقت قصير من الأنف، والفم معًا بأريج معطر شحن المكان بالدفء ليسبح الحاضرون في غمامة من السحر، والغموض، ثم ناولها إلى صديقه رشوان بجواره، وقد تركزت عليه العيون الجائعة في تلك اللحظة، ارتجف برعدة أحس بها إبراهيم، ولكنه لم يشعر بتوتر الجو..

مرت اللحظات بين الرص، والدوران، والدخان يدور بالرؤوس كل حسب احتماله؛ تلتفت الرؤوس نحو إبراهيم الذي يتحداهم دائمًا بالصمود في مثل هذه الجلسات، وقد بدا عليه الانتباه، والحضور، والاهتمام بكل ما يدور حوله من الغمز، واللمز رغم كثرة ما عبّه من دخان، ثم تميل الروؤس نحو رشوان الذي نالت منه الدورات المتكررة، استدار أحدهم إلى إبراهيم متحديًا:

- ستغيب عن وعيك أكيد..

- أنا لا أغيب عن وعيي، وأنت تعرف..

نظر إليه بتركيز، وضيق، ثم أخرج من جيبه قرصين بيضاوين وفي ثقة:

- ليس لك إلا هذان.

ولم ينتظر الجواب وهو يقوم بلصقهما معًا بطرف لسانه، ثم دفعها إلى إبراهيم الذي لم يتردد في ابتلاعها وهم يراقبون..

التفت أحدهم إلى رشوان:

- لقد غاب صاحبك عن وعيه، وأخذه النوم..

امتقع وجه رشوان، ودار ببصره على من حوله، ثم نظر إلى إبراهيم الذي احمرت عيناه، وكاد يغيب عنهم، وهو يفرك عينيه، ويقاوم، تدلى رأسه فوق صدره وقد شعر بثقله، بينما أغرق الكل في الضحك، والسخرية..

نهضوا يتمايلون وقد التفوا حول رشوان الذي جذبه أحدهم فانخلع من مكانه، وسرعان ما التصق به أخر وقد ضمه إليه في نشوة عارمة وهو يدفعهم عنه في يأس، ويلتفت إلى إبراهيم كأنه يستنجده، فهوى أحدهم على عنقه بصفعة مدوية أفاق بها إبراهيم من ذهوله، وغيبوبته فانتفض في قوة وهم يحاولون رده إلى ما كان عليه، فبادر أحدهم بطرحه أرضًا، بينما قام البعض بزحزحة رشوان نحو السرير المتهالك، تطاير الشرر من عيني إبراهيم الذي تنبه تمامًا، ولهيب الفحم يتأجج أمامه في الصحن المثقل بما فيه؛ وكأنه يتأجج في جسمه الذي تحول إلى صخرة صماء..

هوى عليهم بكلتا يديه فاصطدمت إحداهما بالنارجيلة القابعة إلى

جوارهم، وكأنها ثملت فجذبها بسرعة ليطيح بها في وجوههم، وما لبث أن أتبعها بالصحن المملوء بالرماد، والفحم في سرعة لم يتوقعوها؛ فغشى الحجرة غشاء كثيف من الغبار الذي راح ينتشر، ويعلو في المكان الذي تحول إلى ساحة معركة بين المارد، والشياطين فيما يشبه جو الأساطير..

انسل إبراهيم نحو المطبخ، ورجع بسرعة وقد استل عصًا غليظة هوى بها على يد أحدهم؛ فصرخ من شدة الألم، توقفوا في ذهول وقد اتسعت عيونهم، وارتخت الأيدي المتشنجة بعد أن طار من رؤوسهم أثر الدخان، وقد جذب إبراهيم رشوان إليه ليتبعه وهو يتقهقر خارجًا به من الحجرة محذرًا إياهم من الاقتراب، أو المقاومة رافعًا نحوهم عصاه الغليظة، ثم استدار نحو السلم ساحبًا رشوان خلفه..

القرار

تزوج فؤاد البقال الذي يملك دكانًا كبيرًا عند ناصية الشارع من امرأة مطلقة، كانت تتردد عليه كثيرًا في دكانه لشراء حاجاتها التي كانت لا تشتريها مرة واحدة، وقد اتخذ لها مسكنًا بالطابق العلوي الذي كانت تسكن فيه زوجته الأولى..

وحلاوات – زوجته الثانية – امرأة في مقتبل العمر ذات قوام سافر، تتلوى أجزاؤه تحت عبائتها السوداء، تعلن التمرد على الجسد الهادر بالرغبة؛ فهام بها فؤاد الذي ضاق برزانة زوجته الأولى، وعاش لهذا الجسد الذي لا يشبع، وهي تعد له من الطعام ما يعينه على هذا الجسد حتى اكتنز جسمه، وقلت حركته، وتضاءل التقاؤه بها وكأنه سأمها، ولم يعد يهتز لجسدها، فأضمر في نفسه الهروب من هذا الجحيم الذي استكان إليه، واحترق منه فلاذ بزوجته الأولى التي تركها دون طلاق..

عاد يومًا إلى البيت فوجد حلاوات تتشاجر مع إحدى جاراتها التي تبعد قليلًا عن بيتهما، وقد علا صوتهما، وجارتهما هذه تتوعدها إن لم تبتعد عن ابنها الطالب في الجامعة، فتؤكد لها حلاوات أنها ستذهب إليه كلما أرادت ذلك..

سألها مستفسرًا عما سمعه منها بعد انصراف الجارة؛ فأظهرت استخفافها بما يقول، تذرع بالصمت؛ راح يتتبعها مرارًا، إن المرأة محقة فيما تقول، إنها تذهب لهذا الشاب فعلًا، تترقبه حتى تخرج أمه من البيت، وأمه لا تستطيع إبعادها عن ابنها، وفي يوم عقدت العزم على عمل شيء، فتربصت بها في حجرة ابنها؛ انسلت في خفة من الحجرة نحو باب شقتها وهي تصرخ حتى اجتمع عليها الجيران..

إدمان

كانت ليلة عرسه هي أول لقائه بالدخان الأزرق، تنافس أصدقاؤه، ومعارفه في مجاملته، راحت النرجيلة تدور بينهم حائرة، كل منهم يسحب منها ما يملأ صدره، وجوفه مع التوصية بالعريس، اجتمعوا إليه، بعد أن جاء كل منهم بنصيبه من القطع البنية الداكنة، واختاروا مجلسهم في مزارع القصب المنتشرة بالنجع، وفي ليلة مقمرة من ليالي الصعيد الهادئة؛ تقاربت أنفاس النارجيلة، وكثرت، وبلغت مداها حتى تخللت الرؤوس، والأجسام مع تصاعد سحابات الدخان تغلف البصر والبصيرة بغشاء من المتعة تسلمه لأحلام المخدر التي تذهب به بعيدًا..

كانت هذه الليلة بدايته، وكانت نهايته، فلم تكن ليلة وتمضى لحال سبيلها، ولكنها كانت الطامة فقد شكل الدخان الأزرق جزءًا من حياته، لا يفارقه، ويبدو أنه لن يفارقه إلا إذا فارقته الروح، فلا غنى عنه، قد لا

يأكل ولا يشرب، ولكنه لا يطيق عنه بعدًا، يعود من حقله فينتظر المساء بفارغ الصبر، ليهيم على وجهه مسرعًا نحو مزارع القصب..

انهار جسده، وتوقفت حياته عند هذا المخدر، وتشبع جسده الذي بدا أنه لا يرتوي، هل هناك من خروج؟.. علاج؟

يحدثونه عن أحد بدو الصحراء المجاورة، يسرع إليه، يناوله ثمرة صغيرة تشبه التمرة، التهمها بسرعة، أحدثت ضجيجًا في جوفه، جرى إلى دورة المياه ليفرغ ما فيه، لم يعد يأبه للمخدر، ولا يخطو نحو مزارع القصب، ولكنه أصبح ينتظر المساء بفارغ الصبر ليهرع نحو الصحراء.